

توثيق بحوث

# التعاوية مع الإسلام والتعاوية

مكتبة المطبع والنشر  
مكتبة الآداب وطبعتها بالجامعة سنة ١٩٢٧  
٤٣ ميدان الأوبرا - تونس ١٩٥٨  
المطبعة الشارقة جيت  
٦ مكتبة الشارقة بالجامعة الجديدة



توفيقاً بحسبكم

التعارفية  
ع

الاسلام والتعارفية

مستزج الطبع والنشر  
مكتبة الآداب ومطبعتها بالجمهورية  
٤٣ ميدان الأوبرا - تونس ٩٤٠٨٦٨  
المطبعة النموذجية  
٦ سكة الشاويك بالطبعة الجديدة



## كتب للمؤلف نشرت باللغة العربية

- (١) محمد ﷺ (سيرة حوادية) ... .. ١٩٣٦
- (٢) عودة الروح (رواية) ... .. ١٩٣٣
- (٣) أهل الكهف (مسرحية) ... .. ١٩٣٣
- (٤) شهرزاد (مسرحية) ... .. ١٩٣٤
- (٥) يوميات نائب في الأرياف (رواية) ... .. ١٩٣٧
- (٦) عصفور من الشرق (رواية) ... .. ١٩٣٨
- (٧) تحت شمس الفكر (مقالات) ... .. ١٩٣٨
- (٨) أشعب (رواية) ... .. ١٩٣٨
- (٩) عهد الشيطان (قصص قصيرة) ... .. ١٩٣٨
- (١٠) حمارى قال لى (مقالات) ... .. ١٩٣٨
- (١١) پراكسا أو مشكلة الحكم (مسرحية) ... .. ١٩٣٩
- (١٢) راقصة المعبد (رواية قصيرة) ... .. ١٩٣٩
- (١٣) نشيد الأنشاد (كما فى التوراة) ... .. ١٩٤٠
- (١٤) حمار الحكيم (حوار) ... .. ١٩٤٠
- (١٥) سلطان الظلام (قصص) ... .. ١٩٤١
- (١٦) من البرج العاجى (مقالات) ... .. ١٩٤١
- (١٧) تحت المصباح الأخضر (مقالات) ... .. ١٩٤٢

- (١٨) بجماليون ( مسرحية ) ... .. ١٩٤٢  
 (١٩) سليمان الحكيم ( مسرحية ) ... .. ١٩٤٣  
 (٢٠) زهرة العمر ( سيرة ذاتية - رسائل ) ... ١٩٤٣  
 (٢١) الرباط المقدس (رواية) ... .. ١٩٤٤  
 (٢٢) شجرة الحكيم ( مقالات ) ... .. ١٩٤٥  
 (٢٣) الملك أوديب ( مسرحية ) ... .. ١٩٤٩  
 (٢٤) مسرح المجتمع ( ٢١ مسرحية ) ... .. ١٩٥٠

من وحي أخلاق المجتمع ( بين يوم وليلة ) قصة تمثيلية  
 في منظرين - من وحي الطبائع البشرية ( أريد أن  
 أقتل ) قصة تمثيلية في فصل واحد - من وحي الحركة  
 النسوية ( النائبة المحترمة ) تمثيلية في منظرين - من  
 وحي الحياة الزوجية ( أصحاب السعادة الزوجية )  
 تمثيلية في فصل واحد - من وحي حرب فلسطين  
 ( ميلاد بطل ) تمثيلية في منظرين - من وحي رجال  
 الأعمال وصراع الأجيال ( اللص ) تمثيلية في أربعة  
 فصول - من وحي حرية المرأة ( أريد هذا الرجل )  
 تمثيلية في فصل واحد - من وحي الصحافة والسياسة  
 ( عرف كيف يموت ) قصة تمثيلية في فصل واحد -

من وحى السيدنا والدين ( المخرج ) قصة تمثيلية فى  
فصل واحد - من وحى أخلاق الحرب ( غمارة المعلم  
كندوز ) قصة تمثيلية فى فصل واحد - من وحى  
المسال والحب ( السكندر ) قصة تمثيلية فى فصل واحد -  
من وحى المعتقدات الشعبية ( بيت النمل ) تمثيلية  
فى فصل واحد - من وحى الآداة الحكومية  
( أعمال حرة ) قصة تمثيلية فى فصل واحد - من  
وحى الحوادث الجارية ( ساحرة ) قصة تمثيلية فى فصل  
واحد - النماذج البشرية ( الحب العذرى ) قصة تمثيلية  
فى فصل واحد - الحياة العصرية ( الجياح ) تمثيلية  
فى فصل واحد - من وحى الحياة الفنية ( العش  
المهذى ) قصة تمثيلية فى أربعة فصول - من وحى  
الأخلاق والوصولية ( مفتاح النجاح ) قصة تمثيلية  
فى فصل واحد - من وحى تيار المجتمع ( الرجل  
الذى صمد ) قصة تمثيلية فى فصل واحد - من وحى  
المجتمع والعلم الحديث ( لو عرف الشباب ) قصة تمثيلية  
فى أربعة فصول - من وحى العادات الريفية  
( أغنية الموت ) قصة تمثيلية فى فصل واحد .

- (٢٥) فن الأدب (مقالات) ... .. ١٩٥٢
- (٢٦) عدالة وفن (قصص) ... .. ١٩٥٣
- (٢٧) أرنى الله (قصص قصيرة) ... .. ١٩٥٣
- (٢٨) عصا الحكيم (مقالات حوارية) ... .. ١٩٥٤
- (٢٩) تأملات في السياسة (فكر) ... .. ١٩٥٤
- (٣٠) الأيدى الناعمة (مسرحية) ... .. ١٩٥٩
- (٣١) التعادلية (فكر) ... .. ١٩٥٥
- (٣٢) ليزيس (مسرحية) ... .. ١٩٥٥
- (٣٣) الصفقة (مسرحية) ... .. ١٩٥٦
- (٣٤) المسرح المتنوع (٢١ مسرحية) ... .. ١٩٥٦
- سر المنتحرة من أربعة فصول (١٩٢٩) — حياة  
تخطمت من مقدمة وأربعة فصول وخمسة مناظر (١٩٣٠)؛  
— رصاصة في القلب ثلاثة فصول (١٩٣١) —  
الأيدى الناعمة أربعة فصول (١٩٥٤) — الخروج  
من اللجنة ثلاثة فصول (١٩٢٨) — صاحب الجلالة  
خمسة فصول (١٩٥٥) — المرأة الجديدة ثلاثة  
فصول (١٩٢٣) — الصندوق فصل واحد (١٩٤٩)؛  
— الزمار فصل واحد (١٩٣٢) — جنسنا اللطيف  
فصل واحد (١٩٣٥) — نهر الجنون فصل واحد

- (١٩٣٥) — حديث صحنى فصل واحد (١٩٣٨) —  
 دقت الساعة فصل واحد (١٩٥٠) — الشيطان فى  
 خطر فصل واحد (١٩٥١) — لسكل مجتهد نصيب  
 فصل واحد (١٩٥١) — بين الحرب والسلام فصل  
 واحد (١٩٥١) — لا تبحت عن الحقيقة فصل واحد  
 (١٩٤٧) — أمام شباك التذاكر فصل واحد (١٩٢٦)  
 — نحو حياة أفضل فصل واحد (١٩٥٥) — صلاة  
 الملايسكة فصل واحد وستة مناظر (١٩٤١) —  
 كل شىء فى محله فصل واحد (١٩٦٦)

- (٣٥) لعبة الموت (مسرحية) ... .. ١٩٥٧  
 (٣٦) أشواك السلام (مسرحية) ... .. ١٩٥٧  
 (٣٧) رحلة إلى الغد (مسرحية) ... .. ١٩٥٧  
 (٣٨) السلطان الحائر (مسرحية) ... .. ١٩٦٠  
 (٣٩) باطالع الشجرة (مسرحية) ... .. ١٩٦٢  
 (٤٠) الطعام لكل فم (مسرحية) ... .. ١٩٦٣  
 (٤١) رحلة الربيع والخريف (شعر) ... .. ١٩٦٤  
 (٤٢) بجن العمر (ذكريات) ... .. ١٩٦٤  
 (٤٣) شمس النهار (مسرحية) ... .. ١٩٦٥  
 (٤٤) مصير صرصار (مسرحية) ... .. ١٩٦٦

- (٤٥) الودعة (مسرحية) .. ... ١٩٦٦
- (٤٦) ليلة الزفاف (قصة) ... ... ١٩٦٦
- (٤٧) قالبنا المسرحي (دراسة) ... ... ١٩٦٧
- (٤٨) مجلس العدل (مسرحية) ... ... ١٩٧٢
- (٤٩) رحلة بين عصرين (ذكريات) ... ... ١٩٧٢
- (٥٠) حديث مع الكوكب (حوار فلسفي) ... ١٩٧٤
- (٥١) الدنيا رواية هزلية (مسرحية) ... ... ١٩٧٤
- (٥٢) عودة الوعي (ذكريات سياسية) ... ... ١٩٧٤
- (٥٣) في طريق عودة الوعي (ذكريات سياسية) ١٩٧٥
- (٥٤) الحسير (مسرحية) ... ... ١٩٧٥
- (٥٥) ثورة الشباب (قصة) ... ... ١٩٧٥
- (٥٦) بين الفكر والفن (مقالات) ... ... ١٩٧٦
- (٥٧) بنك القلق (رواية مسرحية) ... ... ١٩٧٦
- (٥٨) أدب الحياة (مقالات) ... ... ١٩٧٦
- (٥٩) مختار تفسير القرطبي (مختار التفسير) ... ١٩٧٧
- (٦٠) تحديات سنة ٢٠٠٠ (مقالات) ... ... ١٩٨٠
- (٦١) ملاحع داخلية (حوار مع المؤلف) ... ... ١٩٨٢
- (٦٢) التعادلية والإسلام والتعادلية (فكر) ... ١٩٨٣

## كتب المؤلف نشرت في لغة أجنبية

ترجم ونشر في باريس عام 1881 بعدة أجزاء  
 لكونت هغو الاكاديمية الفرنسية في دار نشر ( توتون )  
 ادبينيون (لين) وترجم الى الانجليزية وفي دار النشر  
 ( بيلوت ) بلندن ثم في دار النشر ( كراون ) بنيويورك في  
 عام 1905. و بأمريكا دار نشر ( تروى كلنفر برينس )  
 واشنطن 1981 =

شهرزاد

ترجم ونشر بالفرنسية في لينتجراد عام 1885 وبالفرنسية  
 في باريس عام 1887 في دار ( مانسكون ) للنشر وبالانجليزية  
 نشرت مطبوعات بله في لندن عام 1888 =

عودة الروح

ترجم ونشر بالفرنسية عام 1883 ( طبعة أولى ) وفي عام  
 1884 ( طبعة ثانية ) وفي عام 1887 و 1888 ( طبعة ثالثة )  
 ورابعة بدار بلون بباريس ( وترجم ونشر بالمعربة عام 1885  
 وترجم ونشر باللغة الانجليزية في دار ( هارمبل ) للنشر بلندن عام  
 1887 وترجم الى الاسبانية في مدريد عام 1888 وترجم  
 ونشر في السويد عام 1888 وترجم ونشر بالألمانية عام  
 1888 وبالرومانية عام 1888 وبالبرتغالية عام 1888 =

يوميات نائب  
 في الأرياف

ترجم ونشر بالفرنسية عام 1888 بتوسط دار نشر ( جاستور )  
 بيتا الاستاذ بالكلية دي فرانكو لم ترجم الى الالهانية  
 عام 1888 وببلاندي عام 1888 وبالصينية في مدريد عام 1888 =

أهل الكهف

ترجم ونشر بالفرنسية عام 1888 ( طبعة أولى ) ونشر ثانية  
 ثانية في باريس عام 1888 =

عصفور من الشرق

(تابع) كتب المؤلف نشرت في لغة اجنبية

<p>ترجم ونشر بالفرنسية في باريس بعنوان « مذكرات لمارتن          ساجر » عام 1911</p>	<p>عدالة ومن</p>
<p>ترجم ونشر بالفرنسية في باريس عام 1900          الترجمة وتكون بالفرنسية في باريس عام 1900          : وبالانجليزية في أمريكا بدار نشر ( نرى كتنتر          باريس ) بواشنطن 1981</p>	<p>بجاليون          الملك اوتيج</p>
<p>ترجم ونشر بالفرنسية في باريس عام 1900          : وبالانجليزية في أمريكا بدار نشر ( نرى كتنتر          باريس ) بواشنطن 1981</p>	<p>صليمان الحكيم</p>
<p>ترجم ونشر بالفرنسية في باريس عام 1900          ترجم ونشر بالفرنسية في باريس عام 1900          ترجم ونشر بالفرنسية في باريس عام 1900</p>	<p>نهر الجيوت          هرتا كليفيمونت          المخرج</p>
<p>ترجم ونشر بالفرنسية في باريس عام 1900          وبالاطالية في روما</p>	<p>بيتا النمل</p>
<p>ترجم ونشر بالفرنسية في باريس عام 1900          ترجم ونشر بالفرنسية في باريس عام 1900</p>	<p>الزمن          وراكساو مشكلة الحكم</p>
<p>ترجم ونشر بالفرنسية في باريس عام 1900          : وبالانجليزية في أمريكا بدار نشر ( نرى كتنتر          باريس ) بواشنطن 1981</p>	<p>السياسة والسلام</p>
<p>: ترجم ونشر بالانجليزية في أمريكا ( نرى كتنتر ) واشنطن 1981          : ترجم ونشر بالانجليزية في أمريكا ( نرى كتنتر ) واشنطن 1981          : ترجم ونشر بالانجليزية في أمريكا ( نرى كتنتر ) واشنطن 1981          : ترجم ونشر بالانجليزية في أمريكا ( نرى كتنتر ) واشنطن 1981</p>	<p>شمس النهار          صلاة الملكة          الطعام لكل نم          الايدي الناعمة</p>

(تابع) كتب المؤلف نشرت في لغة أجنبية

ترجم ونشر بالانجليزية في أمريكا (ثري كنتنتس) واشنطن 1971	شاعر على القمر
: ترجم ونشر بالانجليزية في أمريكا (ثري كنتنتس) واشنطن 1971	الورطة
1) ترجم ونشر بالفرنسية في باريس سنة 1970	الشیطان في خطر
2) ترجم ونشر بالفرنسية في باريس سنة 1970	الثلاث يوم وليلة
3) وبالاسبانية في مدريد سنة 1970	
4) ترجم ونشر بالفرنسية في باريس سنة 1970	العش الهاديء
5) ترجم ونشر بالفرنسية في باريس سنة 1970	أريد أن أقتل
6) ترجم ونشر بالفرنسية في باريس سنة 1970	الساحرة
7) ترجم ونشر بالفرنسية في باريس سنة 1970	تفت الساعة
8) ترجم بالانجليزية في لندن هاتيان سنة 1971	نشودة الموت
9) وبالاسبانية في مدريد سنة 1971	
10) ترجم ونشر بالفرنسية في باريس سنة 1970	لو عرف الشباب
11) ترجم ونشر بالفرنسية في باريس سنة 1970	الكنز
12) ترجم ونشر بالفرنسية في باريس سنة 1971	رحلة إلى الكاف
: وبالانجليزية في أمريكا بدار نشر ( ثري كنتنتس بريس ) بواشنطن 1981	
13) ترجم ونشر بالفرنسية في باريس سنة 1970	الموت والحب
14) ترجم ونشر بالانجليزية لندن هاتيان سنة 1971	السلطان الحائر
15) وبالاسبانية في مدريد سنة 1971	
16) ترجم ونشر بالانجليزية في لندن سنة 1971	باطالع الشجرة
الكنتون بوليفر جاني بريس	
17) وبالانجليزية في لندن دار نشر هاتيان 1971	صغير حرس

(الترجمات الفرنسية من دار نشر « أونيل أيديبون لاين » باريس)



# تعادلية الحكم\*

بقلم ركنورزكي نجيب محمود

(١)

وقفة الأديب ووقفة الناقد مختلفتان ، اختلاف المرحلتين اللتين تكمل إحداهما الأخرى ، لا اختلاف الضدين اللذين ينفي أحدهما ما يثبتته الأخرى ، فالأديب يصور الإنسان تجسيدا في أفراد ومواقف ، وأما الناقد فيتناول بالتحليل هذه الأفراد والمواقف لعله أن يقع على مبدأ كامن وراءها ، يكون هو عندئذ مبدأ الأديب قد أضمره في طويته ليخرجه للناس متجليا فيما خلقه لهم من تلك الأفراد والمواقف ، فوقفة الناقد من أدب الأديب ومخلاقه ، أشبه ما تكون بوقفة العالم من الطبيعة وكنائنها : كل منهما يجد

---

(\*) هذا مقال تحليلي للأستاذ الدكتور ركنورزكي نجيب محمود نشر في عدد خاص عن توفيق الحكيم في مجلة الهلال بتاريخ أول فبراير سنة ١٩٦٨ ميلادية .

نفسه يازاء كثرة من وقائع وحقائق، فيحاول استقطابها في أم واحدة تربطها جميعاً بصلة الرحم .

وكثيراً ما يكون الأديب والناقد رجلين ، يفحص أحدهما عمل الآخر ، وقليلاً ما يجتمع الأديب والناقد في رجل واحد ، يكون اليوم أديباً ثم يصبح في غد ناقداً لأدبه ، مستخرجاً منه أصوله ومبادئه ، وقد كان توفيق الحكيم بكتابه « التعادلية » واحداً من هؤلاء القلة ، التي التقي فيها خلق الأديب وتحليل الناقد ، فقد جاءت — فيما يروى لنا — رسالة من قارىء جاد ، يسأله فيها عن مذهبه في الحياة والفن ، مستخلصاً من كتبه ، ليرى صاحب هذه الرسالة إن كان قد أصاب أو أخطأ في استخلاص ذلك المذهب لنفسه ، ذلك أن ذلك السائل قد انتهى بعد قراءته لكتب الحكيم إلى رأى ، هو أن تلك الكتب في مجموعها تحاول تفسير « الإنسان » في وضعه العام من السكون بزمانه ومكانه ، وفي وضعه الخاص من المجتمع بأجياله وبيئاته ، فانتبه أديبنا الحكيم فرصة سؤال السائل ، وهم بالإجابة ليعدها للنشر ، لأنها ربما جاءت على صورة محددة يمكن وصفها بأنها مذهب في الحياة والفن ، فكان هذا الكتاب الذي بين أيدينا : « التعادلية » .

( ٢ )

قرأت الكتاب ، نجيل إلى وأنا ماض بين صفحاته ، أنى  
إعما أستمع إلى فيلسوف من فلاسفة اليونان الأقدمين ، يتكلم  
العربية ويرتدى ثياب أوروبا العصرية .

لكن الفكر واللغة والثياب لم يكن بينها - مع ذلك - تنافر ،  
بل جاءت كلها في وحدة منسقة تنسيك اختلاف وجوهها ، فأدينا  
الحكيم في « تعادليته » ، ينظر إلى الكون وإلى الإنسان ، النظرة  
نفسها التي نظر بها فلاسفة اليونان ، وهي نظرة تحاول جمع الأضداد  
في وحدة ، وهل نستطيع أن نقرأ نظرات الحكيم في هذه المحاولة ،  
فلا يرد على خاطرنا قول هرقلطس - مثلا - بأن حقيقة  
الكون أضداد تتبادل : النهار والليل ، والشتاء والصيف ،  
والحرب والسلم ، والشبع والجوع ، والبارد والحر ، والرطب  
واليابس ، واليقظة والنوم ، والحياة والموت ؟ أو هل نستطيع  
أن نقرأ تعادلية الحكيم ، ثم لا تذكر قول انبازقليس  
في المحبة والكراهية ، في التجاذب والتنافر ، اللذين يعلل بهما  
هذه الحركة الدائمة في الكون من اتصال وانفصال يسبيان  
كون الأشياء وفسادها ؟ أو هل نستطيع أن نقرأ تعادلية

الحكيم دون أن يمثل أمام بصرك مبدأ « الوسط الذهبي » الذي يتوسط المتطرفات فيكون هو الفضيلة والحكمة ؟ وهكذا أخذت أصدااء الفلاسفة اليونان الأقدمين تتردد في معنى كلا مضيت بين صفحات التبادلية .

فالتبادلية بصفحاتها التي لا تكاد تزيد على مائة وثلاثين صفحة من القطع الصغير ، سياحة تطوف بك على ميادين الفكر ، لتقف بك عند كل ميدان منها لحظة ، تعطيك فيها الجرعة المركزة الموجزة : التي ربما تفجرت في نفسك بعدئذ تساؤلات وتأملات لأنها سياحة تطوف بك على الميتافيزيقا والأخلاق والجمال والاقتصاد والاجتماع والسياسة والبيولوجيا وغيرها من فروع العلم والمعرفة ، ليدلك المؤلف عند كل واحد منها عن موقفه إزاءه ، وكيف يراه بالعين التي تجمع الضدين في فعل واحد موحد ، يديه أن هذه السياحة السريعة لا تمسك الدليل من الوقوف الطويل عند كل منظر وكل أثر ليطنب القول ويسهب ، فهو مضطر أن يخطف الحجة خطفاً ، وإذا لم يكن هذا يكفيك في إقناع العقل ، فالمعول عندئذ إنما يكون على القلب الذي قد ترضيه نعمة الإيمان في إنجازها ما دامت تفوح بالصدق وبالعمق في آن معاً .

أما المسألة الميتافيزيقية فيطرحها المؤلف في سؤاين : يسأل

أحدهما عن الإنسان إن كان في هذا الكون وحيداً ؟ ويسأل  
الأخر عن حربة الإنسان في هذا الكون ؟ وقبل أن يدلي الحكيم  
بجوابه عن السؤالين ، يقدم الرأي الذي يسود عصرنا ، ثم يعالجه ،  
وبعدئذ ينقضه برأيه هو الذي يقيمه على « التعادل » .

فلقد أجاب العصر الحديث فعلا عن هذين السؤالين — فيما  
يقول أديبنا الحكيم « بأن الإنسان وحده لا شريك له في هذا  
الكون ، وأنه إله هذا الوجود ، وأنه حر تمام الحرية ، وبهذا  
الجواب الذي قضى على تعاليم الأديان ختم العصر الحديث على نفسه  
بطابع المسادية » ... ذلك هو جواب العصر ، وأما تعليقه — كما  
يراه الحكيم — فهو « أن التعادل الذي كان قائماً حتى مطلع القرن  
التاسع عشر بين قوة العقل وقوة القلب ، أي بين نشاط التفكير  
ونشاط الإيمان ، قد اختل منذ ذلك الوقت ، بتوالي انتصارات  
العلم العقلي ، واستمرار جهود الجانب الديني » ، ويلحظ الحكيم أن  
هذا الاختلال في التعادل بين العقل والقلب ، قد « كانت له نتيجة  
الطبيعية التي لا بد أن تلازم كل اختلال في التوازن ..  
وهو القلق » .

هكذا شخص الحكيم اعتلال عصرنا ، وهكذا رد الاعتلال  
إلى علته ، ثم استنتج منه نتيجه الطبيعية ، وأردف موضحاً كيف

كانت العلاقة بين العقل والقلب ، تماثلاً أو اختلالاً للتبادل —  
هي موضوع مسرحيته « أهل الكهف » ، وذلك عندما وضعت  
تلك العلاقة في إطار مشكلة الزمن . كما كانت هي موضوع مسرحيته  
« شهرزاد » ، وذلك عندما وضعت تلك العلاقة في إطار مشكلة  
المكان . وينتهي الحكيم من ذلك كله إلى تحديد موقفه من السؤالين  
السابقين : فلبس الإنسان في هذا السكون وحيداً ومسيطرأ سيطرة  
مطلقة ، بل هنالك إلى جانبه قوى غير منظورة ، من شأنها أن  
تحد من حريته ، وإن تكن حافزة له على الكفاح نحو الأرقى ،  
أما القوى غير المنظورة فأدراكها عنده يكون بإيمان القلب ،  
وأما فكرة الأرقى التي تتطلب الكفاح ، فأدراكها يكون بالعقل  
ولا بد من إيمان وعقل يعملان معاً في تماثل .

وعلى هذه القاعدة الأساسية — قاعدة التبادل بين الإيمان  
والعقل — يستأنف الحكيم حديثه عن الحرية الإنسانية ، فيقول :  
إن الجانب العقلي من الإدراك كقيل وحده بأن يشهد بالحرية  
للإنسان دون الحيوان ، وما العقل إلا مشاهدات واستدلالات من  
المشاهدات ، أما المشاهدات في هذا الصدد فتقوم على أن الحيوان  
كله يولد مكبلًا بمعرفة محددة معينة — هي الغرائز — يتصرف  
على أساسها فيما يصادفه من مواقف ، بغير حاجة منه إلى تعلم

وتدريب ، على خلاف الإنسان الذي يولد عاجزاً حتى عن المشي  
والسكلام ، ولا يختزن في جوفه حضارته كما يفعل النحل والنمل ،  
ولذلك كان عليه اكتساباً ، وكانت حضارته من صنعه وبياراته .  
تلك هي المشاهدات ، وأما النتيجة التي تستدل منها فهي أن الحيوان  
مجبر والإنسان حر ، وهندئذ يتولد سؤال جديد عن هذه الحرية  
الإنسانية المطلقة هي أم هي مشروطة ومقيدة بمحدود ؟ هي حرية  
— عند الحكيم — مقيدة بقوى خارجية « أسماها أحياناً القوى  
الإلهية . . حرية الإرادة في الإنسان عندي إذن مقيدة ، شأنها في  
ذلك شأن حرية الحركة في المادة . »

تلك هي النتيجة التي ينتهي إليها إذا نظر إلى الأمر بأداة العقل ،  
فاذا ما استدار إلى الأداة الإدراكية الأخرى — القلب — ليرى  
ما ذا تقول في ذلك ، وجد عندها النتيجة نفسها ، وهي أن الإنسان  
حر الإرادة حرية قد تتدخل فيها القوى الكونية المجهولة ، وإذن  
فهي نتيجة لاختلاف عليها بين عقل وإيمان ، ومن ثم كانت  
هي إحدى الأفسار الرئيسية التي بنيت عليها مسرحياته ؛ أعني  
أنها هي « مأساة الحياة كما تتكشف عن عجز الحرية الإنسانية ، »  
فتستطيع أن تقول هنا إن « إرادة الإنسان في كفة تعادلها الإرادة  
الإلهية في كفة أخرى ، والعقل البشري في كفة يعادله الإيمان

في كفة ، وبهذا التعادل بين القوى يعيش الإنسان . ويسوق  
المؤلف لمثل هذا التعادل أمثلة من « أهل الكهف » و « شهرزاد »  
و « سليمان الحكيم » وغيرها .

### ( ٣ )

تلك هي وقفة الحكيم الميتافيزيقية في حقيقة الإنسان بالنسبة  
إلى الكون وإلى حريته بإزاء هذا الكون ، وهو موقف يترتب  
عليه موقفه الأخلاقي ، فإدام الإنسان حر الإرادة - ولو إلى  
حد محدود - فهو إذن مسئول عما يفعل ، وما دامت قد ذكرت  
المسئولية الخلقية فقد أشرت مشكلة الخير والشر والخير والشر في  
رأيي لأشأن لها بالإنسان المفرد ، ولا وجود لها إلا بالمجتمع ، - وهو  
رأي تثبته هنا كما أراد صاحبه ، ولكنه رأي يدعو إلى شيء من  
التأمل قبل قبوله ، فهل ياترى يجوز للتعزل وحده في جزيرة أن ينتحر  
مثلاً ؟ فإذا قلنا : إن ذلك لا يجوز ، لأن فيه افتتاتاً على الحياة التي  
ليس هو وحده صاحبها ، فقد قلنا بذلك إن الانتحار شر حتى  
ولو لم يكن المنتحر فرداً في مجتمع - لسكنى أترك أمثال هذه

الوقفات الجانبية لأنصرف إلى رأى الحكيم كما أرادته في تعادليته .  
فالخير - عنده - لا يكون إلا فعلاً إرادياً يؤدي إلى نفع الغير ،  
والشر هو الفعل الإرادى الذى يؤدي إلى ضرر الغير ، أى أن  
أدينا الحكيم - إذا نسبناه إلى إحدى مدارس الأخلاق -  
اتمى إلى مدرسة المنفعة ، التى تقيس الفعل نفسه . ولست أريد  
أن أستطرد هنا مرة أخرى لأقول إن القائلين بهذا المذهب  
هم عادة الفلاسفة الذين يركنون فى عملية الإدراك إلى الحس  
والعقل وحدهما ، لا الفلاسفة الذين يعترفون بإدراك القلب ،  
إذ لمؤلا قول آخر يجعل الخير والشر صفتين فى الأفعال نفسها  
بغض النظر عن نفعها وضررها ، وبغض النظر عن انعزال  
الإنسان أو اشتراكه مع غيره فى مجتمع .

ومهما يكن من أمر فالحكيم فى تعادليته يرى أن الخير والشر  
كليهما ضرورى ، ليعادل أحدهما الآخر ، ويضرب أمثلة من  
مسيراته كيف جمع الطرفين فى كل شخصية من شخصياته ،  
وينتقل المؤلف إلى فكرة العقاب ، ليرى فيه رأياً طريفاً ، هو  
أن فعل الضرر بالناس لا ينبغى أن يقابله مجن يحرّم صاحبه من  
حرية ، إذ التعادل لا يكون بين الشر والحرية ، وإنما يكون

بين الشر والخير ، ومؤدى ذلك هو أن أجعل الشرير الذى فعل  
فعلاً ضاراً يؤدي فعلاً نافعاً ليعادل نفعه للناس مع ضرره .

وفكرة الخير والشر تنتج عنها فكرة الضمير ، وهنا يحاول  
الحكيم أن يحدد معنى « الضمير » بقوله « إنه شعور الذات بشر  
لحق الغير لم يقدم عنه حساب » فالمذنب الذى يعاقب على ذنبه  
لا يؤنبه ضميره على شيء ، كأنما الضمير لا يتحرك إلا إذا كان  
صاحبه مديناً لإزاء المجتمع بضرر ألحقه به ولم يدفع مقابله من النفع  
ما يتعادل معه ، وهذا التعادل بين الضرر والنفع ؛ أى بين الشر  
والخير ، هو ما يسميه المجتمع بالعدل ؛ وإذن « فالعدل هو المظهر  
الأخلاقى للتعادل ، والضمير إذن هو الشعور بالعدل » ، وكما يقال  
إن للفرد الواحد ضميراً كذلك يقال إن المجتمع بأسره ضميراً ،  
يؤدى المهمة نفسها ، أعنى أنه يورق المجتمع إذا ما أحس أنه أوقع  
الضرر بغيره ، أو أحس بأن طائفة منه أضرت بطائفة أخرى من  
أبنائه ، ومن هنا تقوم الثورات الاجتماعية لترد للظالم حقه .

( ٤ )

ويعتقد الحكيم أن مسألة الضمير هذه مقصورة على الأفراد  
داخل الجماعة الواحدة ، أما إذا انتقلت إلى السياسة وإلى الاقتصاد ؛

فإنك ها هنا تجد التعادل قائماً بين الأطراف المتضادة ، قيامه في دنيا الحيوان والنبات ، ففي السياسة لا بد أن تتعادل القوى ، ومحال أن تقوم في العالم قوة واحدة بغير قوة أخرى تعادلها ، ويضرب المؤلف لنا أمثلة من التاريخ ، تدل على أنه حتى إذا قامت قوة واحدة ، تراها على الفور قد انقسمت على نفسها شطرين يتعادلان كما حدث للإمبراطورية الرومانية مثلاً .

والأمر في السياسة الداخلية شأنه شأن الأمر في السياسة الخارجية ، لأنه في السياسة الداخلية لا بد من تعادل بين الحاكم والمحكوم ، ولما استطاع الشعب في العصور الحديثة أن يحكم نفسه بنفسه ، نشأت الأحزاب التي يعادل بعضها بعضاً ، فإذا تغلبت طائفة في النهاية وابتلعت كل ماعداها من الطوائف والطبقات واتحدت في قوة واحدة تشمل الدولة كلها ، فإن هذه القوة أيضاً لا تلبث أن تولد قوة أخرى خفية تعارضها وتجاهد في الظهور ، وقد تخفق وتسكبت وتهزم وتخفق ، واسكنها لا بد يوماً أن توجد ، لأن قانون التعادل الذي نرى مظهره في الشهبان والزفير هو الذي يعمل هنا أيضاً ، ونرى مظهره في وجود حركة توازن حركة ، لأن هذا هو شرط الحياة .

ذلك هو شأن السياسة — خارجياً وداخلياً على السواء —

أما في الاقتصاد فإن قانون التعادل يفعل كذلك فعلة بصورة واضحة فلا بد أن يكون هناك توازن بين العرض والطلب ، كالتوازن بين الشهبق والزفير ، وكذلك الأمر في ضرورة التعادل بين الصادرات والواردات ، وبين الإيرادات والمصروفات ، وهكذا .

وإن فكرة التعادل هذه أترأها في الطبيعة نفسها على صورة الفعل وردّ الفعل ، فشكل فعل له الفعل الذي يردّ عليه ليحدث التعادل ، مهما يكن المجال الذي يحدث فيه ذلك الفعل . . إذن فالتعادل هو قانون الطبيعة ، وقانون الإنسان معاً .

( ٥ )

وهذا ينقلنا إلى الميدان البيولوجي لنرى أن عملية الحياة نفسها وتطورها قائمة على التعادل ، ففضلاً عن التعويض الذي يتلجأ إليه طبيعة السكاتيات الحية لتوازن بجوانب القوة بجوانب الضعف ، ولتعويض النقص هنا بالزيادة هناك ، فإذا كانت النحلة رقيقة الجناح ، فهي حادة الإبرة ، أقول إنه فضلاً عن عملية التعويض هذه ، فإن الطبيعة في تطورها تستخدم أداة الفعل ورد الفعل في سيرها قديماً وإلى أعلى وأقوى ، فإذا رأيت الشجرة تنتقل من خضرة يانعة في الربيع إلى صفرة ذابلة في الخريف ، ثم إلى خضرة يانعة في الربيع

التالى وهلم جرا ، فقد أظن أن سيرها يتم فى خط مستقيم ، أو أنها تسير فى خط يدور على نفسه فلا يتقدم خطوة إلى أمام ، وبذلك لا يكون ثمة « تطور » ، لكن حقيقة الأمر هى أن هذه الدورة تلازمها دفعة إلى الأمام يظهر أثرها فى الأجيال القادمة من الكائن الحى ، وحتى أجرام السماء فى سيرها تتحرك فى هذين الاتجاهين معاً : تدور حول نفسها وحول الشمس ، لكنها فى الوقت نفسه « تسير فى الفضاء إلى الأمام فى إطار المجموعة الشمسية بأكملها » ، وقل شيئاً كهذا فى الإنسان وحضارته ، فقد يتعاوره الظلام والنور فى حركة كحركة الليل والنهار ، ولكنه مع ذلك يسير إلى الأمام خلال دورات من الفعل ورد الفعل ، وإنك لتجد هذه الفكرة عن التطور فى مسرحية شهرزاد .

( ٦ )

ويطبق الحكيم فكرة التعادلية فى ميدان علم الاجتماع ، كما طبقها فى ميادين الميتافيزيقا والأخلاق والسياسة والاقتصاد والبيولوجيا ، فيجىء التطبيق هنا على صورة التضاد بين الفسك والعمل تضاداً لا بد أن ينتهى إلى التعادل بينهما ، ولولا أنى أثر ألا أعرقل سير الفسكرة التعادلية باعتراضات جزئية ترد على

خاطري كلما مضيت في صفحات هذا الكتاب ، لوقفت هنا ووقفة  
أناقش فيها هذه القسمة إلى فكر بلا عمل وعمل بلا فكر  
— هذا إذا أخذنا الفكر الذي بمعناه يأتي أن يدخل فيه أحلام  
اليقظة وشطحات الوم — لكن الحكيم على كل حال يضاد  
بينهما ، إلى الحد الذي قد ينتصر أحدهما على الآخر فيخضعه  
لسلطانه ، وهنا تجد إما أن رجل الفكر خاضع لرجل العمل ،  
وإما أن تجد رجل العمل خاضعاً لصاحب الفكر ، ولكن هذا  
التضاد قد يقف عند حد التعادل بين الضدين ، فلا خضوع لجانب  
منهما للجانب الآخر ، وعندئذ يتم التعادل وتصلح الحياة .

وإن التعارض بين العمل والفكر ، هو الذي تراه — فيما  
يقول أديبنا الحكيم — فيما نشأ من صراع على طول التاريخ  
بين الملوك من جهة ورجال الدين من جهة أخرى ، وأن استطاع  
الفكر في صورته الروحية هذه أن يصمد لأصحاب السلطان ،  
فقد عجزت صور الفكر الأخرى كالفلسفة والأدب والفن ،  
عن هذا الصمود ، ولذلك ترى أصحابها قد ذلوا لأصحاب السلطان ،  
وهنا يقترح الحكيم اقتراحاً جميلاً : وهو أن سر ضعف رجال  
الفكر أمام أصحاب الحكم ، هو تفسكهم ، ولو تسكفوا  
وتآذروا ، لتكونت منهم قوة تعادل قوة الحكام . ولنلاحظ

أن رجال الحكم في عصرنا هذا ، برغم أنهم جاؤوا إلى مراكز الحكم بانتخاب الشعب ، إلا أن شعور الجفوة ما زال قائماً بين رجل التنفيذ من جهة ورجل الفكر من جهة أخرى ، لما يخشى أن يواجه رجل الفكر من نقد وتوجيه .

ويستطرد الحكيم هنا ، فيقول إن عصرنا الراهن قد ابتكر طريقة يستطيع بها رجل السلطان أن يسكت رجل الفكر ، فهو اليوم لا يعذبه ولا يسجنه كما كان يفعل الحكام السابقون ، لكنه يستدرجه إلى حظيرة السياسة العملية ، فيلقى بذلك وجوده لأنك إذا أدججت الفكر في العمل لم يعد فسكراً . . . فواجب رجل الفكر إذن أن يحافظ على كيان الفكر ، وأن يصون وجوده الذاتي حراً مستقلاً .

ولكن ذلك لا يعنى أن « ينعزل » الفكر ، فاستقلال الفكر شيء وانعزاله شيء آخر ، إذ المنعزل لا يؤثر في غيره ولا يتأثر به ، فكأنه معدوم بالنسبة إلى الآخرين ، ولا فرق بين فكر ينعزل عن العمل وفكر يقتلعه العمل ويذيبه ، لأنه في كلتا الحالتين مفقود معدوم ، أما استقلال الفكر عن العمل — بغير انعزال — فهو أن يكون له كيان خاص وإرادة خاصة في مواجهة العمل ، حتى يستطيع أن يتأثر به ويؤثر فيه .

( ٧ )

وأخيراً يجيء ميدان الأدب والفن ، فهنا هنا يكون التعادل بين التعبير والتفسير ، بين الأسلوب والموضوع ، « فالأثر الأدبي أو الفني لا يكتمل خلقه ولا ينهض بمهمته إلا إذا تم فيه التوازن بين القوة المعبرة والقوة المفسرة » ، لكن هذا قول يريد شرحاً ، فيشرحه المؤلف شرحاً أسهب فيه ، أما التعبير فيقصد به شيئاً غير « الشكل » ، لأنه الشكل مضافاً إليه شيء آخر ، هو الموضوع نفسه الذي سبق فيه ، التعبير هو الشكل والشيء الذي يتشكل فيه ، هو الأسلوب والموضوع معاً ، فإذا تعادل الأسلوب والموضوع ، وإذا تعادل الشكل والمضمون ، كان لنا بذلك « تعبير قوي ، أما إذا طغى أحد الطرفين ، كأن نزعرف الأسلوب ولا موضوع ، أو أن نضع الموضوع العظيم في شكل سقيم ، ففي كلتا الحالتين لا نظفر بتعبير له شأن في دنيا الأدب والفن .

ولئن كان التعبير بالمعنى الذي يتعادل فيه الشكل والموضوع هو — كما يقول الحكيم — « كل شيء في نظر الفن » ، فهو ليس كل

شيء في نظر التعادلية ، « ففوة التعبير عند التعادلية يجب أن تقترن في الأدب والفن بقوة التفسير ، والمراد بالتفسير ذلك الضوء الذي يلقى عليه الأديب أو الفنان على موضع الإنسان في الكون ومكانه في المجتمع ، أو بعبارة أخرى ، فإن التعادلية تتطلب من الأدب والفن أن يضيف إلى عالمي المنعة والجمال ضوءاً كاشفاً يهدي الإنسان في طريقه إلى السكال ، أعني أن يكون للأدب والفن « رسالة » ، فإذا اكتفينا بالتعبير وحده ، كان لنا بذلك « فن للفن » ، وإذا اكتفينا بالتفسير وحده ، كان لنا بذلك فن ملتزم برسالته وكفى ، لكن المطلوب تعادل بين خصائص الشكل الأدبي والفني ومضمون الرسالة المراد نشرها في آن معاً .

وهنا يجد الكاتب نفسه أمام موضوع الالتزام وجمماً لوجه ، ويرى لزاماً عليه أن يرى كيف يكون التعادل بين حرية الأديب والالتزام ، وورأيه أن الالتزام واجب ، شريطة ألا يكون مصدره غير ذات الفنان ، لأنه لو جاء من خارج الفنان ، كان إلزاماً ، وفقد الأديب حريته ، وفقد الأدب كيانه . لا بل الالتزام الأديب برسالته هو ، لا ينبغي أن يطول به الأمر ، إذ لا بد من مراجعة

الرسالة المراد تبليغها آناً بعد آناً ، وإلا أصبح الأديب عبداً لشيء مضمي أوانه وتغيرت عليه الظروف .

\* \* \*

ألا إن فلسفة الأمة هي مجموع فلسفات أبنائها الذين استطاعوا أن يتخذوا موقفاً فكرياً ، واستطاعوا أن يصوغوا ذلك الموقف في عبارة يتبادلها الناس ، ويحملها الزمن إلى الأجيال الآتية . وإذا كان هذا هكذا ، فإننا لن نذكر الفلسفة العربية بعد اليوم ، إلا وفي أذهاننا فكرة التعادلية التي بسطها أديبنا الحكيم في كتاب له بهذا العنوان .

زكي نجيب محمود

التعاللية



هذه الصفحات ليست سوى إجابة عن سؤال ...  
إجابة موجزة عن سؤال لهم ، وجهته إلى  
قارئه جاد ...  
وقد جعلت إجابتي للنشر ، دونها قد تلقى  
ضوءاً على كتيبي التي نشرت ...  
ثم هي بعد ذلك تحمل تحديداً لوضع يمكن  
وصفه بأنه مذهبي في الحياة والفن ...

ت ١٠



**سألني** ما هو مذهبي في الحياة والفن ؟ ... وتقول :  
إنك قرأت كل كتيبي وخرجت منها بمقيدة : هي أنها  
في مجموعها تحاول تفسير « الإنسان » في وضعه العام من  
السكون بزمانه ومكانه ، وفي وضعه الخاص من المجتمع  
بأجياله وبيئاته ، وأن هذا التفسير يدل على اتجاه ، يمكن  
وصفه بالمذهب ، لو كان في المقذور استخلاص أسسه  
وقواعده ، وهو ما تسألني أن أقوم به .

أعترف أني سررت لقولك هذا ، وعجبت ... سررت :  
لأنني أحب القارئ الذي يستكشفني ... وعجبت : لأنني  
لم أفكر حتى اليوم فيما فكرت أنت فيه ... ولعل السبب  
هو أني أكره الفن الذي يبني على مذهب ، ولا بأس عندي  
أن يبني المذهب على الفن ... لأن الفن هو الكاشف الحر  
من أسرار السكون ... وهذه الحرية في الاحساس والشعور  
والبحث والتفكير كانت هي وسيلتي الأولى ... أما وقد

كتبت ما كتبت بهذه الحرية ، فإن المذهب الذي يمكن أن  
يستخلص من هذه الكتابات لا يضيرني ولا يقيدني ...  
وما دمت تدعوني أن أبحث عن هذا المذهب أو هذا الاتجاه  
بين هذه الكتب فإن أحجم ... سأتحدث إذن على أساس  
فكرتك :

أولاً :

وضع الإنسان في الكون .

ثانياً :

وضع الإنسان في المجتمع .

ما هو الإنسان أولاً ؟ ... هذا سؤال قديم قدم التفكير  
الآدمي ... جديد ما بقي التفكير الآدمي في هذا السكون ...  
فالإِنْسَانُ — مضافاً إليه التفكير — يولدان حتماً هذا  
السؤال ... وما دام السؤال قد ألقى فلا بد له من جواب ...  
وهذا الجواب هو كل ما تحاول صياغته، في أثواب متجددة  
جدة الأيام والليالي، كل علوم الأرض وفلسفاتها وفتونها  
وآدابها، وهذه المحاولات لا يدرى أحد مصيرها؛ لأن الجواب  
لا يمكن أن يكون قاطعاً ما دام السؤال غامضاً ... والسؤال  
غامض؛ لأنه وليد أبوين غامضين ... وهما : الإنسان  
والتفكير ... وإذا كانت القرون تولى والسؤال يلقى في كل  
يوم : ما هو الإنسان ؟ ... ما هو التفكير ؟ ... فهل نطمع  
في حل نهائي لهذه الأسرار ؟ ...

ما أظن أحداً يأمل في حلول نهائية أو إجابات قاطعة ...  
إنما المطلوب هو الاجتهاد في الملاحظة والتفسير ...

كل من زاويته ... وكل بوسيلته ... وكل بأسلوبه .  
هذا كل ما نستطيع ... وهذا كل واجبنا ... ولا ينبغي  
أن نترك الوجود دون أن نلقى على أنفسنا السؤال : ما هو  
الإنسان ؟ ... وأن نحاول إيجاد تفسير ...  
وهنا يدخل الغرض لمعاونتنا ... يجب أن نفترض  
حقائق نسلم بها حتى نستطيع السير في هذا الليل البهيم ...  
ولولا الغرض في الفلسفة والعلم لما كان هناك تقدم نحو أى  
تفسير لأية ظاهرة من الظواهر .  
فلا نفترض - مؤقتاً - أن الإنسان لا يحتاج إلى تعريف :  
إنه ذلك المخلوق المعروف لنا جميعاً ... الذى يعيش فوق  
هذه الكرة الأرضية .  
ولا نفترض - مؤقتاً - أيضاً أن التفكير هو حركة  
الوعى الذاتى فى اتجاه منتظم متسلسل : أى منطقى .  
هذا المخلوق المفكر الذى يسأل عن حقيقته ...  
ما صفاته ؟ ... أول صفة لا تقبل الشك ؛ هو أنه يعيش على  
هذه الأرض ... إذن لابد أن تكون بينه وبين الأرض

صلة ... أو مشاركة في صفة .

ولكن ما هي الأرض ؟ ...

خرجنا من سؤال عسير إلى سؤال أعسر ...

فلنتقنع بأهم صفة للأرض ... وهي أنها كرة وتعيش

بالتوازن أو التعادل بينها وبين كرة أضخم ... هي الشمس ...

فإذا اختلف هذا التعادل ابتلمتها الشمس، أو ضاعت في الفضاء .

التعادل إذن هو الحقيقة الأولى لحياة الأرض .

فهل صفة التعادل هي أيضاً الحقيقة الأولى في كيان

الإنسان ؟ ...

فلنتنظر أولاً كيف يعيش الإنسان من حيث هو كائن

مادى ؟ ... إنه يعيش طبعاً بالتنفس .

ما هو التنفس ؟ ... هو حركة تعادل بين الشهيق والزفير ...

فإذا اختلف هذا التعادل ؛ بأن طال الشهيق أكثر مما ينبغى ،

طاقمياً على الزفير ، أو امتد الزفير أكثر مما ينبغى جائراً

على الشهيق ، وقفت حياة الإنسان ... فإذا تركنا التركيب

للمادى إلى التركيب الروحى ، وجدنا عين القانون .

فالتركيب الروحي للإنسان له هو أيضاً شقيقه وزفيره ،  
فيما يمكن أن نسميه الفكر والشعور ... أو بعبارة أخرى :  
العقل والقلب .

والحياة الروحية السليمة هي أيضاً تعادل بين الفكر  
والشعور .

وما يطلق عليه وصف الأمراض العقلية والعصبية  
ما هو إلا اختلال في هذا التعادل : إما بتضخم الشعور  
تضخماً يلقى إلى جانبه أو يعطل مهمة الفكر ، فيرتد  
الإنسان طفلاً في أعوامه الأولى ... وإما أن يطغى الفكر  
ويكبت الشعور ، فتربك أداة الإدراك في الإنسان .

فالإنسان إذن كأن متعادل مادياً وروحياً ... وهو  
ليس وحده الذي ينطبق عليه هذا التعريف ... كل الكائنات  
التي تحملها هذه الأرض المتعادلة ، تتعادل هي أيضاً كماها  
في تركيبها ، تعادلاً هو سر حياتها .

فالحيوآن والنبات والجماد ... كلها تخضع لقانون  
التعادل ، في تركيبها البيولوجي والكيميائي والطبيعي ...

حتى في نظر العلم الحديث الذي غير معتقدات القرن التاسع عشر حول « المادة » ، وبين بنظرياته عن « المادة » و « المجال » أن ما نصفه بالمادة ليس سوى « الطاقة » مركزة تركيزاً شديداً ، كما أنه صاغ أيضاً القوانين الجديدة في مجال الجاذبية بين جزيئات المادة ... والجاذبية هي أساس التعادل ... لأن الجاذبية تعنى وجود قوتين ... والتعادل يعنى المحافظة على بقاء القوتين ، دون أن تتلاشى إحداهما في الأخرى .

ولنترك الإنسان من ناحيته المادية لرجال العلم ، فإيهم رجال الأدب والفن هي الناحية الروحية في الإنسان ... وإن كانت الناحيتان متداخلتين أحياناً ؛ بل إن من الصعب - وخاصة في نظر المعرفة الحديثة - فصل ما هو مادي عما هو روحي ... بل أصعب من ذلك إيجاد تعريف دقيق لمعنى كلمة « روحي » ، ... ولكن المقصود بالطبع هو المعنى الشائع في الأدب والفن لهذه الكلمة ... المعنى الذي يراد به الإشارة إلى حياة الإنسان الفكرية والشعورية .

فإذا أراد الأدب أو الفن تفسير الإنسان ، فإنما يعنى  
إلقاء الضوء على موقفه الفكرى والشعورى تجاه هذا العالم  
الذى وجد فيه ... عالم الزمان والمكان والماضى والحاضر  
والمستقبل والبيئة والمجتمع الخ ...

ووسيلة الأديب أو الفنان فى تفسير الإنسان مغايرة  
لوسيلة العالم والفيلسوف ... فهو لا يابجأ إلى منهج بحث  
أو تحليل ... ولكنه يابجأ إلى موهبة خلق ومحاكاة .. فهو  
ينشئ صورة للإنسان ... أو على الأصح صورة لتفكيره  
وشعوره قد تحوى من السمات والصفات الظاهرة والخفية  
ما يعين العلماء والفلاسفة على استنباط الحقائق والقوانين .

على أن موهبة الخلق والمحاكاة لا تكفى وحدها للقيام  
بهذا التفسير والتصوير ، إذالم تستمد غذاءها من جوهر  
العلوم والمعارف السائدة فى عصر الأديب أو الفنان .

ففسكرة «أبي العلاء» أو «شكسبير» عن الإنسان  
هى فى نفس الوقت العكس لما كان سائداً فى عصر كل منهما

من ثقافة ومعرفة ... ولن يصل الأديب أو الفنان إلى تحديد  
موقف الانسان في زمانه وعالمه ومجتمعه وعصره إذا  
انقطعت صلة الأدب أو الفن بالعلوم والأفكار المحيطة به .  
على أن مهمة الأديب أو الفنان ليست مجرد تصوير هذه  
العلوم أو تجسيد هذه الأفكار ؛ بل إن واجبه اعتبار هذه  
العلوم والأفكار مادة غذائية تنفعه في بناء الإنسان من  
جديد ، بناء حراً ينبع وحيه من صميم موهبته الخاصة في  
الخلق والملاحظة والمحاكاة ...

وعندما أقول المحاكاة لا أقصد تقليد المظاهر السطحية ؛  
بل أقصد محاكاة الطبيعة في قوانينها الخفية ، التي يستطيع  
الفنان اقتناصها بشبكة إحساساته الدقيقة .

تلك هي وسيلة الأدب والفن في تفسير الانسان .

قرر تسألني بعد ذلك :

ما تفسير الانسان في نظر الأدب والفن في عصرنا

الحاضر ؟ ...

هذا سؤال يحتاج في الإجابة عنه إلى مجلدات ، تملأ بالأراء والمذاهب والاتجاهات التي شغلت الأذهان في هذا القرن الأخير .

وليس هذا موضع الحديث في ذلك ... فالاطلوب مني في إجابتي هذه إليك أن أعرض تفسيراً للإنسان مستخرجاً من كتيبي ... أليس هذا غرضك ؟ ...

إن أرجع إلى كل الكتب ... ولن أسهب في التفاصيل ... فما أنا بصدد بحث عام ... إنما أنا أبدي وجهة نظري الخاصة لتكون نقطة بداية لمن يعنيه الأمر ... ما هو وضع الانسان العام في هذا السكون كما تصوره ؟ ...

هذا السؤال يستوجب التقسيم إلى مسألتين نعرضان.  
دائماً في كل عصر :

المسألة الأولى : هل الانسان وحده في هذا الكون ؟ ...

المسألة الثانية : هل الانسان حر في هذا الكون . . .

الجواب عن هاتين المسألتين يترتب عليه تحديد تبعات

الإنسان ، وتعيين مدى نشاطه وفتية كفاعله .

ولقد أجاب العصر الحديث فعلاً بأن الإنسان وحده .

لا شريك له في هذا الكون ، وأنه إله هذا الوجود ، وأنه

حر تمام الحرية ... وبهذا الجواب - الذي قضى على تعاليم

الاديان - ختم العصر الحديث على نفسه بطابع المادية ...

وعلى الرغم من بقاء الدين في كثير من البلاد المتحضرة ،

ماضياً في دعوته ، محافظاً على مظاهر قوته : إلا أن الناس

جميعاً - حتى المتمسكين بالطقوس وروح النصوص -

قد سيطرت عليهم النزعة المادية ، دون إدراك منهم ، لأن

جو العصر كله قد تشبع بها تشبهاً لا تجدى في صدده النوافذ

الغلظة ولا الأبواب الموصدة . فهو آؤه يتسرب إلى النفوس  
وهي لا تفطن ...

ما السبب في ذلك ؟ ...

السبب واضح : وهو أن التعادل الذي كان قائماً حتى  
مطلع القرن التاسع عشر بين قوة العقل وقوة القلب ،  
أدى بين نشاط التفكير ونشاط الإيمان ، قد اختلف منذ ذلك  
الوقت بتوالي انتصارات العلم العقلي ، واستمرار جمود  
الجانب الديني ... فالعلم ولید العقل قد ضاعف قوته وجدد  
وسائله ووسع آفاقه ، في حين أن الدين ولید القلب بقى  
محسوراً في أفقه ، لم يكتشف منابع جديدة في أعماق القلب  
الإنساني ، تتعادل مع تلك العوالم الجديدة التي اكتشفها  
العقل البشرى .

وباختلال هذا التعادل وقع العصر الحديث في الجانب  
الأرجح ، ونجم عن ذلك خضوعه للنتائج المترتبة على سيطرة  
العقل وحده . ومنها حرية الإنسان في هذا السكون تبعاً

لحرية فكره ، وإنكار كل ما لا يثبت بالبحث والاختبار .  
ومن ثم إنكار إرادة أخرى غير إرادة الإنسان أو وجوداً  
آخر غير وجوده ، فهو كأن وحده في هذا الكون ...  
وكان لهذا الاختلال في التعادل نتيجته الطبيعية التي لا بد  
أن تلازم كل اختلال في التوازن ... وهو القلق . فالقلق  
السائد في النفوس اليوم مبعثه هذا الاضطراب في ميزان  
التعادل بين العقل والقلب ... بين الفكر والإيمان ...  
وهذا الاختلال في التعادل لا بد أن يصح نفسه  
بنفسه على مدى الوقت ... وقد ظهرت في هذه الأيام بعض  
الدلائل . فالعصر الحديث بدأ يزهد فكرة الإنسان الكائن  
وحده في هذا الكون ... فهو يتشوق حنيناً إلى أحد غيره ...  
إلى كأن أرقى ... ولم يسعفه الدين بإطار جديد لهذه الفكرة  
التي جعل يمن إليها ... فيبقى ينتظر ويأمل أن تتحقق المعجزة  
ولكن في محيط العلم العقلي الذي لم يزل مسيطراً على  
فكره . وما الاهتمام بالأطباق الطائرة اليوم ، وأمل الناس

فى ان تكون آتية برسالة من عالم أفضل وكائنات أرقى  
إلاّ منفس عام يلعاف الشعور الذى جف بجفاف المنبع  
الدينى ، ويريح الإنسان من قلقه ، ويخرجه قليلا من ضيقه  
بوحده فى هذا الكون ...

هذا التعادل واختلاله بين العقل والقلب فى إطار مشكلة  
الزمن كان موضوع مسرحيتى « أهل الكهف » . كما أن هذا  
التعادل أيضاً واختلاله بين الفكر المطلق ممثلا فى « شهرار » ،  
والإيمان العاطفى ممثلا فى « قمر » متحركا فى إطار مشكلة المكان  
ودورته كان موضوع مسرحيتى « شهرزاد » ...

على أن لقلق الإنسان فى العصر الحديث سبباً آخر متصلا  
بأمنه المباشر ، فهو يخشى فى كل لحظة دماره المادى بيده هو  
نفسه . هذا السبب هو فى عين الوقت نتيجة من نتائج  
انتصاراته العقلية والعلمية . فهو قد أصبح قادراً قدرة مادية  
هائلة ساحقة ، يمكنها فى أى وقت أن تغلب من يده ، وإذا  
أفلتت فقد هلك ... هذه القدرة أو القوة لا ياجمها غير

حكته ... وهو لا يضمن كثيراً هذه الحكمة . ومن هنا جاء  
قلقه .. قلقة على سلامته وكيانه . فهو يعيش من يوم إلى يوم ،  
في هذا العصر الحديث ، ناظراً إلى ميزان التعادل بين القوة  
والحكمة ، بعين زائفة شاردة ...

هذا التعادل بين القدرة والحكمة ، وثباته واختلاله كان  
موضوع مسرحيتي « سليمان الحكيم » .  
من كل ذلك تتضح وجهة نظري في قضية الإنسان ،  
فأزمة الإنسان في هذا العصر هي عندي نتيجة اختلال  
في تركيبه التعادلي ...

وعلى ذلك يسهل استنتاج جوابي عن السؤالين السابقين .  
هل الإنسان وحده في هذا الكون ؟ ... وهل هو في هذا  
الكون حر ؟ ...

لم أنشر رأياً صريحاً في هذا المعنى ، ومع ذلك فقد  
أصبح لي ، فيما يظهر ، رأي في هذا الشأن ، لدى بعض النقاد  
الاجاب الذين يعنون عادة باستخلاص هذه الاتجاهات من

الأثار . فأغلبهم ذكر في تعليقاته وبحوثه عن مسرحيات  
العشرين التي ترجمت : أن الفلسفة المسيطرة عليها هي قدرة  
الانسان المحدودة أمام قدره ، وأن مصير الانسان عندي  
مرتبط دائماً بكفاحه أمام القوى غير المنظورة ... وشذ  
بعضهم عن ذلك قائلاً : إن المعتقدات عندي قد تحررت من  
قدسياتها لتلبس رداء إنسانيتها ، ولكن الانسان فيها ظل قلقاً  
مهتداً بقوة خفية .

مهما يكن الرأي فالمفهوم مما كتبه هؤلاء أنهم استتجروا  
من خلال مسرحي أني على أي حال لا أؤيد فكرة وحدة  
الإنسان أو حرية المطلقة في هذا الكون ...

وهذا ما لا أنكره ...

فأنا أحس بشعوري الداخلي أن الانسان ليس وحده  
في هذا الكون ... وهذا هو الايمان . وليس من حق أحد  
أن يطلب إلى الايمان تعليلاً أو دليلاً . فإما أن نشعر أو  
لا نشعر ، وليس للعقل هنا أن يتدخل ليثبت شيئاً ... وإن

أولئك الذين ينجأون إلى العقل ومنطقه ليثبت لهم الايمان ،  
إنما يسيثون إلى الايمان نفسه . فالايان لا برهان عليه من  
خارجه . إنى أومن بأنى لست وحدى ... لأنى أشعر بذلك ...  
ولم أفقد إيمانى ، لأنى رجل متعادل ...

ولكنى من جهة أخرى أفكر بعقلى ، لالسى أدمع  
إيمانى بأنى لست وحدى ... بل لأعرض المسألة أمام  
تفكيرى بعيداً عن الايمان ...

هل يقبل العقل فكرة الكائن الأرقى ؟ ... أى الأرقى  
من الانسان ؟ ...

إن الحيوان حتى فى أعلى مراتبه لا يدرك فكرة  
الأرقى ... إنه يدرك فكرة الأقرى ... فالعالم بالنسبة إليه  
إما مخلوقات ضعيفة يتغلب عليها ، وإما مماثلة له فى القوة ،  
وإما أقوى منه يتحاشى مواجهتها ... والقوة عنده بدنية بحتة ...  
أما الانسان فيستطيع بعقله أن يدرك فكرة الأرقى ...  
أى الأقرى ذهنياً وروحياً ...

وهو يستطيع أن يرى فيما حوله آثار أعمال تدل  
على ذهن أقوى وروح أرقى ملايين المرات من ذهنه  
وروحه ... فما الذي يمنعه عندئذ من قبول فكرة وجود  
الأرقى ؟ ...

إن الحيوان قد قبل الفكرة في محيطه المادى البدنى  
فتعاشى قتال الأرقى ... ومعنى هذا التعاشى هو إيمانه  
بوجوده ... فلماذا لا يقبل الانسان الفكرة في محيطه الذهنى  
الروحى ، ويؤمن بوجود الأرقى ؟ ...

إن عقلى يقر الفكرة ...

ولكنه لا يستطيع أن يصنع لها صورة جديدة واضحة  
تتفق مع جلالها .

لأن العقل لا يصنع غير الصور التى تتمشى مع منطقته ،  
ومنطقته قائم على فروض ومشاهدات وملاحظات مما يقع  
في نطاق اختباراته . فهو إذن لم يصنع للأرقى غير صورة  
لما يعرف ، بحسبة غاية التجسيم في حرفه ونظيره ... وهذا

لن ينتج غير صورة مشوهة تهبط بالفكرة ... ولعل هذا  
سبب من أسباب الإلحاد .  
فتنح نسال العقل أن يصنع لنا صورة لله فيخفق ،  
فبدلا من أن نضحك ونهزأ بالعقل ، نضحك ونهزأ بفكرة :  
الله ا ...

فلتؤمن إذن بالقلب وحده ... تلك قوته . ولندع العقل  
يفكر في مجاله وحده ... تلك أيضا قوته ...  
وهذا التعادل بين القوتين يكفل سلامة الشخصية  
الانسانية .

**بقي** أن أجيبك : هل الإنسان حر في هذا الكون؟ ...  
ما من جواب يمكن أن تتلقاه إلا من القوتين المنوط بهما  
مهمة الإدراك والوعي ؛ وأعني العقل والقلب ... كل منهما ؛  
يجيب على طريقته وبأسلوبه ووسيلته ... فالعقل قبل أن يبدى  
رأيه سيبحث ويلاحظ ويقارن ويستنتج ، سينظر إلى الطير  
وهو يبني عشه هذا البناء المحكم ، وإلى النحل وهو يقوم  
بأعماله العجيبة في الخلية، ويتساءل : في أي مدرسة يتعلم الطير  
والنحل هذه الأعمال البارة ؟ فتجيبه الملاحظة : إن الطير  
والنحل وأكثر الحيوان والحشرات لا تتعلم ولا تتدرب ،  
ولسكنها تولد وفي أحماقها هذه المعرفة المخزونة فيها - تلك  
التي تسمى « الغريزة » - فتدفعها دفعاً وتحركها تحريكاً اصنع  
الآجيب ... عندئذ يتساءل العقل : والانسان ؟  
إذا يولد ولا يستطيع هو أيضاً أن يبني بيته الجميل ويغرس

بستانه الرائع بغير تعليم ولا تدريب ؟ ... ما بال الانسان يولد  
حاجزاً حتى عن المشي والكلام ولا يخزن في جوفه حضارته  
كالنحل والنمل ؟ - ما باله يولد متروكا لنفسه ، مجرداً من  
الغرائز الإنشائية ، محتاجاً إلى اكتساب معارفه بنفسه خطوة  
خطوة ؟ ...

نعم ... الحيوانات يولد مكبلاً بالمعرفة المتحجرة أى  
الغريزة ، والإنسان يولد مجرداً ... أى حراً ! ... وعليه  
هو أن يكتشف المعرفة من جديد ، فى كل مرة يولد ... إن  
المعرفة المتحجرة عند الحيوان ، تلك التى تولد معه ، هى  
معرفة مفروضة عليه فرضاً ، لا يستطيع أن يتجنبها ولا أن  
يحمدها ولا أن يبدل أو يغير فيها ، ولا أن يجدها فى ليها  
أو شكلها ... إن خلية النحل هى خلية النحل منذ وجد وإلى  
أن ينقرض ... وليس فى مقدور النحل أن يصنع خلية  
على صورة أخرى ، أو يمتنع عن صنعها عامداً ، أو يعيش  
ليصنع شيئاً آخر ...

تلك هي الجبرية التي لا حرية معها ...  
أما الإنسان فلم يفرض عليه نوع من المعرفة يقيد ويكبله  
ويجبره على صنع شيء بعينه طول حياته ، على نحو خاص  
لا يملك أن يتجنبه أو يغيره أو يحدد عنه ... إن النحلة تولد  
وهي تعرف بالضبط ماذا هي صانعة في حياتها لأن مهمتها  
معروفة محددة ...

أما الطفل فيولد ولا أحد يدرى ماذا هو صانع في  
حياته ... لأن مهمته ليست معروفة ولا محددة كهمة النحلة  
والنملة ... بل إن سلوكه في الحياة هو الذي سيحددها ...  
يستنتج العقل إذن من هذه الملاحظة والمقارنة أن  
الجبرية التي فرضت على النحل والنمل لأداء عمل معين على  
وجه معين ، لم تفرض على الإنسان الذي ترك حراً بواجه  
مصيره ...

ولكن هذه الحرية التي تركت للإنسان ، هل هي  
مطلقة ؟ ... هل هي مقيدة ؟ ...

ربما استطاع العقل أن يوافق بلسان العلم - وهو  
أحد مولوداته وأدواته - على أن حرية الانسان مقيدة ،  
قياساً على حرية الحركة بالنسبة إلى المادة ... فقد قال لنا  
« نيوتن » ومن قبله « جاليليو » : إن الجسم المتحرك يظل  
يتحرك في اتجاهه إلا إذا تدخلت في ذلك قوى خارجية ...  
ذلك قانون القصور الذاتي المشهور بالنسبة إلى المادة ،  
وقد يصح أيضاً بالنسبة إلى حرية الانسان ... أى أن حرية  
الانسان تظل تتحرك في اتجاهها ، إلا إذا تدخلت في  
أمرها قوى خارجية ...

وهنا ينبغي أن نسأل العقل أو العلم هذا السؤال المعضل  
ما هي هذه القوى الخارجية ؟ ...

في نظر القلب أو الإيمان الجواب بسيط ... ولكن  
العقل سيحاول أن يبحث عن الجواب في عالمه المادى  
دائماً ... أى أنه سيتحاشى الاقتراب من منطقة الشعور  
الادى الداخلى الذى لا يعمل بالمنطق ... سيقول العقل

إن القوة الخارجية هي مجموع الإرادات الأخرى المتعارضة  
أو المقاومة ، سواء كانت مباشرة أو غير مباشرة ...  
وسواء كانت في مجتمع معقد أو مجتمع بسيط .

وقد يلجأ العقل إلى العسلم ليعقد المقارنات بين قضايا:  
انحراف الإبرة المغناطيسية ، وبين انحراف الإرادة الانسانية ،  
وقد يشبه مجال حركة الإنسان في مجتمعه بالمجال الكهربى  
المغناطيسى فى المادة ، ليخرج من كل ذلك بتفسير  
يقبله منطق المادى للقوى الخارجية المؤثرة فى حركة الحرية  
البشرية ...

وقد يقتنع العقل ... وحتى إذا لم يقتنع فهو سيمضى .  
يتصيد الأدلة والبراهين داخل نطاق طامه المعهود ...  
أما القلب فهو مقتنع بغير دليل ولا حاجة إلى الأدلة .  
فى طام القلب والإيمان ... لأن الدليل هنا مفسد للاقتناع ...  
بل أن الاقتناع نفسه ليس من وظيفة القلب ... لأن معناه .  
أنه جاء بعد شك ... والقلب لا يشك لأنه لا يفكر ...

لأنه يشعر ... إنه بحاجة يضيء كصباح السكرهه ...  
فالقلب الإنسانى يشعر أحياناً شعوراً لا تعليل له بأنه  
ليس وحيداً ولا حراً فى هذا الوجود ... ألا يحدث أحياناً  
أن تشعر كأن شخصاً ما فى مكان ما ينظر إليك ؟ ... فإذا  
رفعت رأسك وبحيث وجدت فعلاً أن شعورك صادقاً ...  
ألم تلاحظ مرة أو مرتين فى حياتك أن حادثاً معيناً وقع  
لك فى ظرف معين ففيسر بجرى حياتك على وجه معين ؟ ...  
وتحاول أن ترد ذلك إلى المصادفة فتعجز ، لأن تلك الإرادة  
الخارجية تدخلت بصورة منظمة منسقة تم على وعى بعقل  
ما يفعل ويعنى ما يريد ، لإحداث نتائج مقصودة بالذات ،  
ما كانت تحدث لولا هذا التدخل الذى لم يكن متوقفاً ؟ ...  
إرادة خارجية لها كل عناصر الإرادة الرشيدة الذكية تهبط  
على إرادتك العادية فتفسر اتجاهها وترسم لها طريقاً  
جديداً ... إن عقلك أحياناً مهما يبلغ فى منطقتة من الصلابة  
والدقة ، لىأبى أن يخضع مثل هذا الحدث للتفسير العقلى

الاعتاد بالسهولة المعتادة ...

إن المناصرين للعقل والعلم يكتفون في مثل هذه الحالة.

بجز رؤوسهم ! ...

أما المكابرون والمتعصبون فهم ماضون في الإنكار ؛

لأن العقل وحده عندهم هو الإله ...

أما أنا فأعترف بالعقل والعلم وحرية الانسان ... ولكن

لا يمكن أن أنكر القلب والإيمان ... إني لا أحب على

العقل أن يشك .. لأن وظيفة العقل هي الشك .. أى

الحركة .. فإذا انقطع عن الشك في بحوثه وقوانينه ، ووقف

عن الحركة في قلب الحقائق والنتائج فقد شل عمله وانتهى.

أجله ...

أما القلب فوظيفته الإيمان : أى الثبات ...

فلنترك للقلب إذن أمر تلك الحقيقة الثابتة التى نستعصى.

على كل حل واستنبهم على كل تحليل ...

موقفى إذن من حرية الإنسان هو الآتى :

الإنسان عندي حر في اتجاهه حتى تتدخل في أمره قوى  
خارجية أسميها أحياناً القوى الإلهية ... حرية الإرادة في  
الإنسان عندي إذن مقيدة ، شأنها في ذلك شأن حرية الحركة  
في المادة ...

والحرية المقيدة ففكرة لا تروق لأكثر الأوربيين  
اليوم لأنهم - كما قلت - قد ثقلت بهم كفة العقل والعلم  
والفكر التي تتوكله الإنسان وحده في هذا الكون ...  
وقد تجلى ذلك في تعقيب أولئك النقاد الذين أشرت  
إليهم ... فقد رأى أحدهم أن موقفي وإن كان لا يتعارض  
كثيراً في أحكامه النهائية مع ما جاءت به الأجيال العصرية ،  
إلا أنه يعبر عن عقيدة تهزأ بها أوروبا بنير حق - كما قال - ؛  
هي مأساة الحياة كما تتكشف عن عجز الحرية الإنسانية ...  
على أن الحقيقة التي أحب أن تستقر في وضعها الصحيح هي  
أنى « تعادلي » أى أن إرادة الانسان في كفتها تعادلها الإرادة  
الإلهية في كفة أخرى ، والعقل البشرى في كفة

يمسده الإبان ، كفة ...

بهذا التعادل يعيش الإنسان ويعمل ...

غير أنى قبل أن أبلور أفكارى وأصوغها بما يطابق  
هذه النظرية « التعادلية » ، قد حاولت تفسير موقفى من حرية  
الإنسان ووحدايته ... فقلت فى كتابى « فن الأدب » :  
« هذا الموقف من قضية العصر ، قد وقفته وتأملته ...  
فالإنسان عندى ليس إله هذا العالم ... وهو ليس حراً ...  
ولكنه يعيش ويريد ويكافح داخل إطار الإرادة الإلهية ...  
هذه الإرادة التى تنجلي للإنسان أحياناً فى صور غير منظورة  
من عوائق وقيود على الإنسان أن يكافح لاجتيازها والتغلب  
عليها ، . . . فأنبياء الشرق أنفسهم يبعثهم الله ويضع أمامهم  
العقبات ، فطريق النبى ليس معبداً ، ولكنه يجاهد فى تبليغ  
رسالته وسط أشواك من غرائز الناس ...

إن قضية العصر اليوم، وهى التى تقرم على حرية الإنسان،  
سواء باعتباره فرداً أو باعتباره جماعة ، إنما تتحد وتلتاق

في أمر واحد هو : إنكار الله ... إنكار القوى غير المنظورة  
التي تؤثر في مصير الإنسان ...

على أن شعوري بعجز الإنسان أمام القوى المؤثرة في  
مصيره ليس مؤداه التشاؤم ...

كما أني لست أرى في النظريات الأوروبية القائلة ببحرية  
الإنسان أمام مصيره ؛ ما يدعو إلى التفاؤل ... العكس  
هو الأصح ... فإن فكرة تأليه الإنسان وحده على  
هذه الأرض كانت في رأي من الأسباب التي أدت إلى كوارث  
العالم اليوم ... فالإنسان الإله الحر الذي لا شريك له  
ولا سلطان لقدر عليه ، مع ما يركب فيه من غرائز الحرب  
والكفاح ، عندما جحد وجود غيره على الأرض ، وأنكر كل  
قوة غير قوته في الدنيا ، لم يجد ما يوجه إليه غرائز حربه ونشاط  
كفاحه غير نفسه ، فأنقلب محارباً نفسه ، هادماً ذاته ...  
في حين أن فكرة الشعور بالقوى الأخرى التي تواجه  
الإنسان وتؤثر في إرادته وحريته ، تدفع به في نهاية الأمر

إلى أن يحشد غرائز حريه ونشاطه وكفاحه ، لا ضد نفسه ، بل ضد هذه العوائق المستترة ، وهذه القوى الخفية ... فالشعور بعجز الإنسان أمام مصيره هو عندي حافز إلى الكفاح ، لا إلى التخاذل ... « أهل الكهف » كانوا ضد الزمن ... ولبت أحدم متعلقاً بالحياة ، يقارع الزمن بسيف بشار ، هو « القلب » ، إلى آخر لحظة ... و « شهرزاد » جاهدت محارلة أن تردّ إلى العوالم زوجها الذي أراد أن ينبذ أرضه و آدميته ، وأن تعيد إليه إيمانه ببشريته ... و « سليمان » جاهد ضد إغراء القدرة التي كادت تخرس صوت الحكمة ... وهكذا كان الإنسان عندي ، يجاهد دائماً ضد العوائق الخفية التي شعر بتأثيرها في حريته وإرادته ومصيره ...

لو اتجه تفكير الأدب الأوربي المعاصر إلى هذه الوجة ، ودعا إلى إحشد قوى الإنسان ضد القيود الخفية التي تسكب حريته الحقيقية ؛ لكان في هذا النوع من

التفكير بعض الحل لازمة الإنسانية في العصر الأخير ...  
فأزمة الانسان اليوم هي حربه ضد نفسه ... فهو ليس له  
قريب آخر غير نفسه ... لم يعد في غروره يرى سوى  
حريته المطلقة ... لم يعد يرى القوى الأخرى غير المنظورة ،  
التي تحرك وجوده وتلمب بمصيره ، وتستوجب نضاله ،  
وتتطلب تفكيره ... » .

الأدب الأوروبي في هذا العصر لا يريد إذن أن يقف  
من الانسان موقفاً صريحاً صادقاً ... فالإنسان ،  
على هذه الصورة ، ثوباً مسرحياً من قنطرة وحرية لا حد لها ،  
ووضع حالة الألوهية هكذا فوق رأسه ... تيرق بأشعتها  
الصناعية ... كل هذا الخداع ، شأن كل خداع ، مهما  
يكن من سلامة دواقمه وأهمية أهدافه ؛ فإن له من العواقب  
ما يهدد بصيرة الانسان ...

الآن وقد كشفت لك عن رأيي في وضع الانسان  
من الكون ، على أساس أنه يعقل وجود الأرقى ويشعر به ،  
ويدرك أنه حر الإرادة في نطاق إرادة خارجية عليا ...  
فلنتقل إلى وضع هذا الانسان في المجتمع ، بحالته هذه  
وإدراكه هذا ...

ما هو المنتظر من هذا الانسان أن يصنع ؟ ... إنه  
كما ذكرت ، ليس كالنحلة ركب فيها عملها من البداية إلى  
النهاية ... لا ... إنه أعطى آلة مفكرة قابلة للنمو ، وآلة  
شاعرة قابلة للنمو أيضاً ... وهذا كل شيء ...

ماذا يصنع ؟ ... وفي أي طريق يسير ؟ ... لا بد له  
من هداية ... لا بد له من نموذج ... هذا النموذج هو  
إدراكه للأرقى ، هذا الإدراك للأرقى ؛ هو دليله الذي  
يقوده في طريق الحياة الانسانية ... هو حافزه للتطور ...

هذا الإدراك للسكان الأرقى ليس عندي مجرد عقيدة  
دينية؛ بل هو ضرورة إنسانية ... شأنها في ذلك شأن  
الضرورة الحيوانية التي تحمل الحيوان على إدراك  
الآقوى ...

فإدراك الحيوان لوجود الآقوى هو الذي يحمله على  
اكتشاف منابع قوته الذاتية، وتنميتها وإعدادها لساعة  
المواجهة واللقاء ... ولو فرضنا أن حيواناً طاش وحده  
في جزيرة نائية، اطمأن فيها إلى وجوده، ولم يشعر بقوة  
فيها غير اقوته التي لا يرى حاجة إلى استخدامها أو مقارنتها  
بأخرى، لكان من الجائز أن تضم هذه القوة فيه  
وتضمحل ... فالشعور بوجود الآقوى ينشط القوة ...  
كذلك الشعور بوجود الأرقى عند الإنسان ينشط  
الرقى ...

إن نظرية التطور عند «لامارك»، و«داروين»،  
و«سبنسر»، لن تصح فيما يتعلق بالإنسان إلا إذا أدرك

وجود الأرقى ... فنمو عقله وقلبه رهن بهذا الإدراك ...  
طبقاً للقاعدة التي تقول بتطور العنصر تبعاً للوظيفة ، تلك  
هي الضرورة الانسانية التي أرتبها على اعتقاد الانسان بأنه  
ليس وحده في الوجود ... هذه الضرورة التي تحمله على  
اكتشاف نفسه ، وارتداد منابع قواه الذهنية والروحية ،  
وتنميتها وإعدادها لمواجهة تلك الأسرار والقوى الخفية  
التي تبهر عقله وتغلب له ... وهو في هذا الكشف والارتداد  
والتنمية يتغير ويتطور ، ويسمى على ذاته طبقة بعد طبقة ...  
فرداً ومجتمعاً ...

والإنسان قد تطور فعلاً بناء على هذا الإدراك للأرقى  
بعقله وقلبه ... ثم وقف تطور الإيمان القلبي ، كما ذكرت ،  
واستمر التفكير العقلي يتطور وحده في قفريات باهرات ،  
جمال العصر الحديث يلبس النموذج الأصلي ؛ وهو السكان  
الأرقى ؛ أو فكرة الله ... ولا يوى غير العقل المنتصر  
بمفرده ...

هذا الاختلال في التعادل بين تطور الفكر وتطور  
الإيمان ، قد عرفه سير الانسان في طريق الرقي الكامل ،  
كما عرفه أيضاً اختلال آخر في التعادل بين تطور الفرد  
وتطور المجتمع ...

**قلت** لك إن الإنسان ليس خاضعاً للجبرية التي تخضع  
لها النملة والنحلة ... فهو قد خلق حراً يتكيف عمله ويتحدد  
اتجاهه تبعاً لظروف اتصاله بالحياة ، ومهما يكن من أمر  
وجود القوى الأخرى التي تؤثر في إرادته ؛ فإن هذا التأثير  
لا ينفي عنه صفة الإرادة الحرة في كثير من أوضاعها ...  
وما دام الإنسان حر الإرادة ، ولو بعض الحرية ؛  
فهو إذن مسئول ... لأن المسؤولية تنبع من الحرية ... فالنحلة  
أو النملة ليست مسئولة عن عملها ؛ لأنها خلقت به ...  
أما الإنسان فلم يخلق بعمله ... فهو إذن مسئول عنه ...  
وإذا ذكرت مسؤولية الإنسان منذ القدم ذكر الخير  
والشر ... لأن الخير والشر هما الموجب والسالب في كهباء  
العلاقات البشرية ... والخير والشر في رأي لا شأن لهما  
بالإنسان الفرد ... ولا وجود لهما إلا بالمجتمع ... فلو فرضنا

وجود شخص منعزل في جزيرة ، ليس فيها غيره وغير أشجار .  
فاكبة يطعم منها ، فإن الخير والشر لا يوجدان في هذه  
الجزيرة ... فإذا فرضنا أن شخصاً آخر هبط عليه ، وطاشا  
معاً ، فإن الخير والشر يولدان ليعيشا معهما ... فقد يحدث  
أن يقطف أحدهما ثمرة شبيهة يطعم فيها الآخر ، فيختلسها  
منه أو يختصمها لنفسه ، وقد يحدث أن يمرض أحدهما فيقوم  
الأخر على خدمته ومعاونته ... فالخير وهو الفعل الإرادي الذي  
يؤدي إلى نفع الغير ، والشر وهو الفعل الإرادي الذي يؤدي  
إلى ضرر الغير ، لا يوجدان إلا بوجود الغير ... فلا بد إذن  
من وجود الغير ، أو بعبارة أخرى المجتمع ، حتى يوجد  
الخير والشر — فالخير والشر لم يولدا مع الإنسان ،  
ولكنهما ولدا مع المجتمع ... أو هلي الأصح بعد ميلاد  
المجتمع ... وأقصد بالمجتمع هنا مجرد اجتماع شخصين فأكثر ...  
وهنا يصح أن نسأل :

— أيهما ولد قبل الآخر ؟ ... الخير أم الشر ؟ ...

في رأي أن الشر والخير ، كالليل والنهار ، يتعادلان  
ولا تدرى أيهما أسبق ... وقد يكون الشر هو الأصل في  
الإنسان ، لأنه متصل بالوعي الأساسي للإنسان : وهو  
الشعور بالذات ، وحب هذه الذات ... فحب الذات الغريزي  
في كل الموجودات الحية ، ومنها الإنسان ، يدفعه إلى إرضاء  
هذه الذات ولو أدى ذلك إلى إيذاء الغير ... وكلما كان  
المجتمع بدأباً همجياً انطلقت هذه الأثرة الغريزية على فطرتها  
غير مبالية بضرر الغير ... ولكن المجتمع في تطوره نحو  
النظام رأى أن ضرر الغير لا بد أن يوازن ويعادل بفعل  
آخر ، هو : نفع الغير ، وكلما ارتقى المجتمع اتخذ نفع الغير  
وضماً هاماً من أوضاع السلوك العام ، فوجد الخير وحقق  
الشر ... لأن المجتمع يعلم أن الخير في حاجة إلى دعوة  
وتشجيع ، لأن حب الغير أشق وأصعب عند الإنسان من  
حب النفس . فالخير وليد الروح والتهذيب ، ولكن الشر  
وليده الغريزة والطبع وكان من أثر هذه الدعاية بصورها

المفرقة أن وضمت العلاقة بين الخير والشر وضماً مصطنعاً أدى إلى انشطار المجتمع إلى أخيار وأشرار ، وأبرياء ومجرمين ... وهذا التقسيم ليس في مصلحة الإنسان ولا المجتمع ... ذلك أنه يحفر هوة وهمية بين الإنسان والإنسان ، ويصم طائفة من المجتمع بوصمة سوء عرفية لا تزول عنهم أبداً ... وهذا مع ما فيه من إلحاق الشلل والعقم بجزء من جسم المجتمع ، فإنه مخالف لحقائق الأشياء ...

لقد لاحظ أحد النقاد الأجانب أن مسرحى يقوم على أشخاص تتحدد مراكزهم ، لا بالنسبة إلى الخير والشر ، بل بالنسبة إلى الحقيقة والواقع ... هذا صحيح ، فأنا لم أبرز قط أشخاصاً ينتمون إلى الخير مطلقاً ، أو إلى الشر مطلقاً ... فأنا أرفض هذه الفكرة ، ورفضتها دائماً في كل ما كتبت ؛ بل إنى رفضت فكرة الثواب السماوى للخير المطلق ... راجع قصتى ، وطريد الفردوس ، ... لأن الأنبياء والرسل أنفسهم

تعرضوا لعتاب الله ، ولا يمكن أن يعاتب الله على الخير ...  
فالإنسان عندي قيمة ثابتة ، تلحق بها أحوال متغيرة  
من الخير والشر ، والصحة والمرض ... وأن من يأتي عملاً  
يضر الغير ، يستطيع أن يأتي عملاً ينفع الغير ... وهو  
لذلك ليس خيراً ولا شراً ، ولا صحيحاً ولا مريضاً في  
أحواله العادية ؛ إنما هو موضع تتعادل فيه وتتوازن هذه  
الحالات المختلفة المتغيرة ... فهو يكون في حالة مرض ،  
ولكنه يعمل للشفاء ؛ أي للاقتراب من حالة الصحة ... ذلك  
أن الإنسان باعتباره قطعة من عالم المتحرك ، ما يكاد يقع في  
حالة حتى يبدأ في التحرك نحو الحالة المقابلة أو المعادلة ،  
وهو لا يبقى في حالة واحدة طويلاً إلا بوسائل صناعية ...  
فمن بقي في حالة الشر أكثر مما ينبغي واستمر يضر الغير ،  
فإن ذلك في أكثر الأحيان راجع إلى أن المجتمع  
سدّ في وجهه طريق الانتقال إلى الحالة المعادلة التي  
تتيح له فعل الخير ... لذلك أرى أن فكرة الخير والشر

يجب أن تنغير في نظر المجتمع ... وأن المجتمع يجب أن يقف من مرتكب الشر - لاموقف المنتقم - ، بل موقف المطالب بحالة التعادل ، أى بفعل الخير... وعلى هذا الأساس يجب أن تنغير فكرة العقاب ... فعاقبة مرتكب الشر بحبسه : أى بحرمانه من حريته ؛ ففكرة خاطئة ... فحرية الإنسان يجب أن تبقى له ... وثمن الجريمة يجب أن يدفع - لا من حرية الإنسان - ؛ بل من همل إيجابى يوازن ويعادل العمل الذى ارتكبه ... إن من يرتكب الشر : أى من يقوم بالعمل الإرادى الذى يؤدي إلى ضرر الغير ، يجب أن يدفع الثمن بعمل إرادى يؤدي إلى منفعة الغير ... أما أن يؤدي المذنب الثمن بمجرد حرمانه من التدخين أو الطعام أو الاتصال بأهله وذويه ، فهذا إجراء سلبي لا يعود على الغير بفائدة ، ويعود على المذنب بشرع العواقب ، فهو يفقده آدميته ، ويقبله وحشياً بشرياً يتدرب في سجنه وقفصه على التنمر للمجتمع الذى وصمه بوصمة الإجرام ...

وهذا ما يفسر لنا كيف نجحت السجون وتنجح في مختلف  
الأمم - مهما يبلغ رقيها - في تخريج طراز خطر ماهر  
مدرب من المجرمين المحترفين ... ذلك أن فكرة العزل عن  
المجتمع ، تحمل في نفسها خطرها على المجتمع ... فالمجتمع  
الذي يدفع عن حظيرته شخصاً - ولو لمدة محدودة - يقبله  
في الحال عدواً ناقماً ... وان في طرد مرتكبي الشر بعيداً عن  
المجتمع ، وتجميعهم في مكان واحد ، لما يربطهم جميعاً برباط  
واحد ، ويجعلهم يكوّنون فيما بينهم مجتمعاً آخر ، تسوده  
تعاليم أخرى مادية لتعاليم المجتمع الذي طردهم ... وهكذا  
تم عملية الانشطار بين أهل المجتمع الواحد ، وينقسم  
الناس إلى أخيار وأشرار ؛ بحكم القانون والعرف ، لا بحكم  
الواقع والحقيقة ... ذلك أن من بين أفراد المجتمع مذنبين  
ومرتكبي شر لم يقبض عليهم ولم يقرروا تحت طائلة القانون  
استمروا في حياتهم العادية بين أهلهم وذويهم ، يتحركون  
في المجتمع بكامل حريتهم وحقوقهم ، يصنعون الشر مرة

والخير مرة ، إلى أن تنقلب حالة على حالة ، فيظهر خيبرم  
ونفعمهم للناس ؛ فيرضى عنهم المجتمع ، أو يظهر شرهم  
وضرم للناس ؛ فيطالبوا بتقديم الحساب ... وهذا  
الحساب هو وحده الذى يجعل منهم المجرمين المحترفين مادام  
يتخذ شكل الحبس الذى أشرنا إليه : أى القفص الذى  
تتدرب فيه الوحوش على صقل مخالف الإجرام ...

والرأى عندى هو إعادة النظر فى طريقة الحساب  
والعقاب ... فيما هذا عقوبة الإعدام للقتل العمد ، فهى  
لا بد أن تبقى ... لا على أنها عقوبة ؛ بل لأنها وضع  
طبيعى ... فطبقاً لمذهب التعادل : لا شيء يعادل حياة  
الإنسان غير حياة الإنسان ... أما بقية الجرائم التى  
يعاقب عليها عادة بالحرممان من الحرية : أى بالحبس والسجن ؛  
فهى التى يجب أن تتغير وتوضع على أساس جديد ... على  
أساس المعادلة — لا بين الحرية والشر — ؛ بل للمعادلة  
بين الخير والشر ... أى أن من يرتكب فعلاً يضر الغير

يجب أن يعادله بفعل ينفع الغير ... وعلى هذا الوضع  
يجب أن تلغى السجن ، ويقام بدلاً منها مصانع وأدوات  
إنتاج ... فن فعل شراً بالمجموع عليه أن ينتج خيراً يفيد  
المجموع ، دون حاجة إلى أن يطرد من مجتمعه أو يقص  
عن أهله وذويه ، أو يحرم من حريته في ممارسة حياته  
العادية ... كل ما يطلب منه هو أن يؤدي ثمن الشر الذي  
ارتكبه من إنتاجه ... يجب أن ينتج لحساب المجتمع  
ما يعادل في الزمن والكم جسامه الشر الذي صدر منه ...  
هذا الحساب الإيجابي المنتج أفيد وأنفع للمجتمع من السجن  
السلبى العقيم ، وهو فضلا عن ذلك مبق لكرامة المذنب ...  
لأنه يبقيه بين مجتمعه وأهله : أى فى البيئة الصالحة لتوبته  
وتحركه فى اتجاه الخير ...

**ووجوه الخير والشر** يؤدي إلى وجود الضمير ...  
والضمير خاص بالإنسان ... لأن الخير والشر لا يعرفهما  
الحيوان ... فالحيوان قد ينفع ويضر ، ولكن بالفعل  
الغريزي لا بالفعل الإرادي ...

ومتى انتفت الإرادة ، انتفت المسؤولية ، ومتى انتفت  
المسئولية عن الخير والشر ، انتفى معناهما ... والضمير  
كالخير والشر ، لا بد لوجوده من وجود الغير : أى المجتمع ...  
فالإنسان الفرد المنعزل في جزيرة نائية يعيش بدون ضمير ؛  
لأنه يعيش بدون خير وشر وغير ... ولكن ما هو  
الضمير ؟ ... أهو مجرد الشعور بأن الشر : شر ، والخير :  
خير ؟ ... بماذا نصف شعور الارتياح عند من يقتل أخذاً  
بالنار ، وهو يعلم أن ما فعل شر ؟ ... أو شعور الرضا عند  
من يسرق ثياباً ليسك رمقه ؟ ... لا بد من وجود هنصر

ضرورى فى الشعور حتى يوجد الضمير ... هذا العنصر هو  
الإحساس الذاقى بالذنب ، هو إحساس مرتكب الشر بأنه  
أحدث بالغير ضرراً جديراً بإصلاح ... الضمير هو إذن  
شعور الذات بِشَرِّ لِحَق الغير لم يقدم عنه حساب ... ذلك  
أن المذنب الذى يعاقب على ذنبه أو يكفّر عنه التكفير  
الكافى ؛ لا يسمع فى أعماق نفسه صوتاً للضمير ... فالضمير  
لا يتكلم إلا ليذكر بالمديونية قبل الغير ، أو بعبارة أخرى  
يذكر النفس أن الشر الذى ارتكب يجب أن يعادَل بخير ...  
هذا الشعور بالتعادل يسمى فى عرف الأخلاق بـ «العدل» ...  
فالعدل هو المظهر الأخلاقى للتعادل ... والضمير إذن هو  
الشعور بالعدل ، أو على الأصح : شعور الذات بعدل  
لم يتحقق نحو الغير ...

والضمير كما يوجد عند الفرد يوجد عند المجتمع ...  
فالمجتمع يتولد فيه أيضاً شعور بأن عدلاً لم يتحقق نحو الغير ،  
أى نحو طائفة منه لحقها شر بفعل طائفة أخرى ...

وهنا تقوم الثورات الاجتماعية لتصحيح الوضع وتعيد حالة  
التعادل ، التي تسمى العدالة ، أو العدل الاجتماعي ...  
في محيط « الأخلاق ، الضمير — الفردي أو الجماعي —  
هو الحارس المنوط به الصياح لطلب العدل : أي التعادل ...  
أما في محيط السياسة والاقتصاد ؛ فإن الحارس هو  
القوانين الآلية التي تعمل من تلقاء نفسها ، كما تعمل قوانين  
الغريزة في محيط الحيوان والنبات .

ففي السياسة الدولية لا بد دائماً من توازن : أي تعادل  
بين القوى ... وقبلما حدث في تاريخ الأمم أن انفردت طويلاً  
دولة واحدة بالقوة في العالم ... حتى يوم كادت الدولة  
الرومانية أن تسيطر بمفردها على الدنيا : انشطرت هي  
نفسها إلى قوتين ، إحداهما في روما بزعامة « اكتافيوس » ،  
والأخرى في الإسكندرية بزعامة « أنطونيوس » ، ... ثم حدث  
لها نفس الأمر في العهد المسيحي ، حيث قامت الدولة  
الرومانية الغربية في « روما » ، والدولة الرومانية الشرقية في

«القسطنطينية» . وهكذا ... وهكذا ...

وفي السياسة الداخلية لا بد دائماً أيضاً من توازن :  
أى تعادل بين قوة الحاكم وقوة المحكوم ... حتى في عهد  
السلطان المطلق ، فإن قوة المحكوم كانت تجدها منفذاً  
وسبيلاً من خلال رجال الدين أو رجال الفكر ... فلما  
استطاع الشعب في العصور الحديثة أن يحكم نفسه بنفسه ؛  
انشطرت قوته نفسها إلى قوى مختلفة في صورة أحزاب  
تتوازن وتتعادل كي تحتفظ بوجودها الضروري ، للتعبير  
عن إرادة من تمثلهم من طوائف الشعب ... فإذا تغلبت طائفة  
في النهاية ، وابتلعت كل ما عداها من الطوائف والطبقات ،  
واتحدت في قوة واحدة تشمل الدولة كلها ؛ فإن هذه القوة  
أيضاً لا تلبس أن تولد قوة أخرى خفية تعارضها وتجاهد  
في الظهور ... وقد تمخضت وتسكبت وتهزمت وتمخضت ؛ ولكنها  
لا بد يوماً أن توجد ... لأن قانون التعادل الذي نرى  
مظهره في الشهيق والزفير ؛ هو الذي يعمل هنا أيضاً ، ونرى

مظهره في وجود حركة توازن حركة ... لأن هذا هو شرط الحياة ...

أما في الاقتصاد : فقانون التعادل صارم في عمله ... فلا بد أن يكون هناك توازن بين العرض والطلب ، كالتوازن بين الشهييق والزفير ... فإذا زاد العرض زيادة فاحشة على الطلب ، انعدمت قيمة السلعة ، وإذا زاد الطلب زيادة فاحشة على العرض ، ارتفع السعر واختنق السوق ، وكان لا بد من عودة التعادل بوسيلتين : إما بالمبادرة إلى زيادة العرض ؛ فيعتدل السعر وتعود الحركة الطبيعية للسوق ، وإما أن يتعذر إيجاد العرض ، فيظهر قانون آخر ، هو قانون التعويض ، خلاصته أن سلعة أخرى مشابهة إلى حد ما في الوظيفة للسلعة النادرة ؛ تحتل مكانها عوضاً عنها في سوق العرض .

كذلك الحال في الميزان التجاري ، وفي التعادل بين الصادرات والواردات ، وفي معادلة الميزانيات بين الإيرادات

والمصروفات ... وهكذا ... وهكذا ... ما الاقتصاد  
إلا تعادل بين عوامل مختلفة تتحرك طول الوقت في السريان  
المالي للأفراد والأمم ، وإذا اختلف هذا التوازن فترة ، فلا بد  
أن يعادل نفسه بنفسه بقوانينه الذاتية .

وللتعادل أدواته الفعالة التي يستخدمها دائماً في كل محيط :  
سواء في العلم ، أو في الأخلاق ، أو في الفن ، أو في الفكر ،  
أو في السياسة ، أو في الاقتصاد الخ... هذه الأدوات ما يسمى  
بـ رد الفعل ، ... كل فعل في كل محيط له رد فعل ،  
وما رد الفعل هذا سوى آلة التعادل للفعل إذا أسرف وجار  
واختلف توازنه وجاوز حدوده ... رد الفعل ؛ أو بعبارة  
أخرى : رد التعادل إلى الفعل الذي انصرف إلى مداه  
ونهايته ... ذلك هو معناه الحقيقي ...

فالتعادل ؛ إذن يعمل بجهاز ذي محركين ... رد الفعل ،  
والتعويض ، وأجل مظاهر التعويض من أوضح ما يصادفنا في  
الكائنات جميعاً — فكل ضعف تعوضه قوة ... وكل نقص

تقابله زيادة ... فالنحلة رقيقة الجناح ، ولكنها حادة الإبرة ،  
والثقل في الوزن والجسم ، غالباً ما يكون خفيف الظل  
والروح ... والفقيرة في جمال الوجه أو الجسد أو الشكل  
كثيراً ما تكون غنية في جمال النفس أو الخصال أو العقل ...  
وهكذا وهكذا ... ذلك أن التعادل لا بد أن يتم على أى  
حال ... فكل فعل لا بد له من رد فعل ... وكل ضعف  
لا بد له من قوة مقابلة ... وكل نقص لا بد له من زيادة  
معادلة ... فالشر والضعف والنقص والقبح حالات في  
الكائنات لا يمكن أن تقوم بنفسها دون وجود أصدقاء  
تعاودها ... وكل المشكلة هي أن الكائن العاقل ، أعنى الإنسان ،  
هو وحده الذى يحمل أحياناً تلك الحقيقة ... فإذا لحقته حالة  
من تلك الحالات ، وقع في اليأس ، فلم يسع إلى اكتشاف  
القوى المعادلة الموجودة لديه وهو لا يدري ... فى حين أن  
الكائن الغريزي ، أى الحيوان أو النبات ، لا يقعد بائساً  
ولا جامداً ، بل يدرك بمعارفه الغريزية أين يجد قواه المعادلة .

**أشرت** منذ لحظة - في صدد الحديث عن التعادل  
بين قوة الحاكم وقوة المحكوم - إلى رجال الفكر ، باعتبارهم  
المنفذ الذي تنسرب من خلاله قوة المحكوم في عهد السلطان  
المطلق ... وهذا قد يدعوك إلى التساؤل :  
- ما هو الفكر ، وما هو السلطان ؟ ...

للإجابة عن هذا السؤال يجب أن تتصور مرة أخرى  
ذلك الرجل المنعزل في الجزيرة النائية ... هذا الرجل كيف  
يقضى حياته ؟ - إنه ولا شك يعمل في نهاره ليوفر لنفسه  
المأكل والملبس والمأوى ، فهو يقطف الثمر من الشجر ،  
ويصنع من الأغصان كوخاً ، وينسج من بعض الألياف  
ثياباً ... أى أنه يباشر العمل الضروري لحياته المادية ...  
فإذا جاء وقت الراحة واضطجع في الظل الوارف ، وأرسل  
بصره إلى السماء الصافية بدأ يفكر في حاله قائلاً لنفسه :

— وبعد ؟ ... من أنا ؟ ... وما معنى حياتي ؟ ... أمي  
تسرفي ؟ ... نعم إن حولي أشياء جميلة ؟ ... ماهو الجمال ؟ ...  
هو إدراكى لخلق أعجب به ... وما دمت قد وعيت الإعجاب  
فإني أشعر بوعى آخر : هو التمنى ... إني أتمنى أكن أذن على  
صورة تمجيني ... تملؤني إعجاباً ... صورة أفضل ... مادمت  
قد وعيت الأفضل لى ... فحاضرى إذن لا يهيجنى تماماً ...  
إذن أنا أنتقد وضعى ... على أى صورة أفضل أود إذن  
أن أكون ؟ ... هذا الكوخ أولاً يجب أن يصير متسعاً  
مرتفعاً ، لأشرف منه على البحر ... وهذا البحر يجب أن  
أسبح فيه ... فلأصنع إذن قارباً ... فإذا صنعت القارب فإني  
أستطيع أن أحيط بالجزيرة وأعرف كل شواطئها ، وقد  
أتمكن من استكشاف جزيرة أخرى قريبة ... الخ ...  
هذا هو التفكير ... وقد يؤدي هذا التفكير إلى  
المعمل ... فبينمض هذا الرجل فى اليوم التالى ليحقق بالفعل كل  
أو بعض ما فكر فيه ... وقد يصادف من العوائق والصعوبات

ما يصرفه عن تحقيق أفكاره ، فيكتفى بعمله اليومي المعتاد ،  
ويجلس يسخر من تفكيره ، ويهزأ بتبرمه ونقده لوضعه ...  
وهكذا :

إما أن ينجح الفكر في توجيه العمل ، وإما أن ينجح  
العمل في خنق الفكر .

فإذا فرضنا أن رجلاً آخر قد هبط الجزيرة ... وأصبح  
في الجزيرة رجلاً : أي مجتمع صغير ... وكان أحدهما أقوى  
عملاً ، والآخر أقوى فكراً ... فما الذي يحدث ؟ ...  
ما من شك في أن أحدهما سيؤثر في الآخر ... وهذا التأثير  
سيختلف في المدى والصفة تبعاً لسلطان كل منهما ... فإما أن  
يظهر سلطان العمل فيخضع الفكر لإرادته ... وإما أن  
يظهر سلطان الفكر فيوجه العمل حسب مشيئته ... وإما أن  
يحتفظ كل منهما بسلطان معادل تجاه الآخر ، فيكون  
التوازن الذي يحد من انفراد أحدهما بالسيطرة انفراداً  
طامعياً .

فإذا انتقلنا من المجتمع الصغير في هذه الجزيرة إلى المجتمع  
الكبير في الأمم والشعوب ، فإننا نجد الصراع بين هاتين  
القوتين : قوة العمل وقوة الفكر ، يحتل الجزء الأكبر  
من تاريخ البشرية ... فالعمل من قديم يمثل في السلطة المادية  
التي تتولى أمور الناس بالفعل ... والفكر يمثل في السلطة  
الروحية التي تبصر وتنقد وتفتح للناس الآفاق التي يمكن أن  
يمتد إليها التطور الإنساني ...

ولعل أول مظهر للسلطان العملي هم الملوك ، وللسلطان  
الروحي هم رجال الدين ... والصراع بين السلطانيين  
معروف من قديم ... أما رجال الفكر ، من فلاسفة  
وشعراء وعلماء وأدباء وفتانين ، فإنهم لضعفهم وفقيرهم  
وتفكك الرابطة بينهم ، قد اضطروا في العصور القديمة  
إلى خدمة الأقوى والأغنى ، وهم الملوك ... وبقى رجال  
الدين يصارعون إلى أن ضعف سلطانهم بضعف سلطان  
الدين نفسه ، وخاصة في العصور الحديثة ، على أثر التقدم

العلى، وركود التجدد الروحى ... على أن التقدم العلى.  
أو العلى قد ردت إلى رجال الفكر سلطانهم المفقود ...  
فبدأوا يظهرون بمظهر القوة المستقلة فى إطار الديمقراطية  
التي أضعفت الملوك، ونوّرت الشعوب ومكنتها من اقتناء  
الأثار الفكرية، وضمنان العيش لرجال الفكر ...  
فالعصر الحديث إذن لم يعد عصر الصراع بين الملوك  
ورجال الدين ...

فما الذى حدث اليوم لقوة العمل وقوة الفكر؟ ...  
إن الإجابة عن هذا السؤال تلخص كل روح العصر  
الحاضر ... فقوة العمل اليوم يمثلها حكام من صميم الشعب،  
يصلون إلى السلطة عن طريق الأحزاب والانتخابات ...  
وسواء أكان الحكم فى أيدي أحزاب متعددة تتناوبه،  
أم فى يد حزب واحد يسيطر عليه وحده؛ فإن الشعوب  
الآن هى التى تحكم نفسها بنفسها ... وعندما يقال إن  
شعباً يحكم نفسه فعنى ذلك بالطبع أنه اختار حكامه من.

أبنائه ؛ وهؤلاء الأبناء هم الذين تتركز فيهم قوة العمل ...  
على أن هذا الوضع الحديث لم يغير الشعور الخفي  
الذي يكنه العمل نحو الفكر ... فقوة العمل التي تمثل  
« التنفيذ » تخشى وتكره دائماً قوة الفكر التي تمثل  
« النقد والتوجيه » ...

إن « العمل » في كل زمان يحاول أن يلزم « الفكر »  
بالطاعة ، ففي عهد الملوكية يوم كان رجال الدين هم القائمين  
بمهمة النقد والتوجيه لسلطان الملوك ، كان الملوك يجاهدون  
دائماً لخفض هذه الأصوات المرتفعة إلى جانب إرادتهم ،  
فتارة يرشغبون ويستميلون ، وتارة يهددون ويخيفون ، وتارة  
يستولون عنوة على القوة الروحية ويعلنون أنهم هم الرؤساء  
الحقيقيون للدين ...

في العصر الحديث يتعرض « الفكر » لعين الخطر ،  
ولكن في صورة جديد ... فالحكم الديمقراطي أو الشعبي  
لا يستطيع في كل الأحوال أن يخفض صوت « الفكر »

المحرق قهراً وغصباً، ولكنه يستطيع أن يلغى وجوده إلغاءً؛  
بأن يستدرجه استدراجاً إلى حظيرة السياسة العملية ...  
ومتى دخل رجل الفكر تلك الحظيرة فقد بطل نقده  
وتوجيهه وتفسيره، وأصبح منضماً إلى نظام معين، يسير  
في اتجاهه، ويعمل بتعليماته، ويخضع لإرشاداته؛ وبذلك  
يتجنب الحزب السياسي فكراً طليعاً مناهضاً لإرادته،  
ويكتسب جندياً مطيعاً ياتر بأوامره ...

وهذا الاستدراج للفكر كي يقع في حظيرة العمل،  
يتم في العصر الحديث بواسطة شبك وتفاخ صنعت بمنتهى  
البراعة: شبك وتفاخ في صورة نظريات أدبية وفلسفية،  
تؤدي كلها في النهاية إلى أن يلتزم الفكر بالعمل التزاماً يضر  
بمقومات حياته، أو يخضعه له إخضاعاً يقضي على كيانه  
الذاتي ...

وبعض الواضعين لهذه النظريات من رجال الفكر  
أنفسهم لم يقصدوا الإضرار بالفكر، ولكنهم انجرفوا

تحت تأثيرات مختلفة ... منها حين بعضهم إلى العمل حيناً  
أقدم الثقة في قوة الفكر الذاتية ... خصوصاً في عصر  
بلغت فيه المادية أوجها ... وعصفت فيه الحروب بالقيم ،  
وزلزلت النظم ، وتغلغلت آثارها المدمرة في نفوس الأفراد  
والجماعات ، وأصبح لكل شخص على الأرض مشكلة يريد لها  
حلاً ، وأسئلة ينتظر عنها جواباً ... وأحس رجل الفكر  
أن مهمته قد ازدادت عبثاً ... ومسئوليته قد ثقلت وزناً ...  
وخشى أن يكون القلم في يده غير كاف ولا شاف ...

هذا الإيمان المزعزع بقوة الفكر ، قد دفع بعضهم إلى  
الانحراف في سلك حزب من الأحزاب ، فانقلب بذلك إلى  
رجل ضل ، وانقلب فكره داعية لحزبه ... كما دفع بعضهم  
إلى الحيرة بين الأحزاب المختلفة ، والنضال في الميادين  
المتعددة ، يتقاذفه القلق ونخبة الأمل ، إلى أن ينتهي به  
الامر ، إما إلى تأليف حزب خاص يحبس فيه فكره ،  
وإما إلى تأجير الفكر أو التبرع به للخدمة في كافة ميادين

## السياسة والحكم ...

في كل هذه الصور ، ما ارتفع منها في المعنى وما انخفض ،  
تري رجل الفكر قد ضعف وشك واستسلم وترك مكانه  
هلعاً ، وجرى ينضم تحت راية السلطة العملية ... وبذلك  
هرب من رسالته الحقيقية ... تلك الرسالة التي تعتبر « الفكر »  
قوة مستقلة معادلة وموازنة ومراقبة لقوة « العمل » .  
وهذا التعادل بين القوتين يبطل إذا ابتلع أحدهما الآخر ،  
والخوف دائماً على الفكر منذ القدم ... لأن العمل :  
أى الحكم هو الأقوى ... وهو الذي اعتاد أن يتلع  
الفكر ...

فواجب رجل الفكر إذن أن يحافظ على كيان الفكر  
وأن يصون وجوده الذاتي حراً مستقلاً ، وأن يصمد به في  
وجه كل عدوان ؛ لأنه هو الضمان الوحيد على هذه الأرض  
الآن تجاه انحراف قوة العمل الانحراف الطاغى المدمر ...  
لكن هل معنى حرية الفكر واستقلاله أن ينفصل

وينعزل ، كما يتهم أحياناً ؟ ... لا ... استقلال الفكر شيء ،  
والانعزال شيء آخر ... المنعزل لا يتأثر ولا يؤثر ، فهو  
شيء غير كائن بالنسبة إلى الغير : أى المجتمع ... والفكر  
الذى ينعزل عن العمل شأنه شأن الفكر الذى يتناغم  
العمل ... كلاهما لا وجود له ... إنما المقصود باستقلال  
الفكر هو أن يكون له كيان خاص وإرادة خاصة في مواجهة  
العمل ، حتى يستطيع أن يتأثر به ويؤثر فيه .

قد تسألنى : ولماذا نفضل الفكر عن العمل ؟ ...

ألا يمكن أن يتحدجا ويتحددا ؟ ...

جوابى أن هذا مستحيل ...

لأنهما عندما يتحدجان ويتحددان يصبحان شيئاً واحداً

هو : العمل ...

ولنضرب مثلاً بسيطاً : أنت تفكر في السفر إلى

الريف للزومة ... فإذا سافرت بالفعل فقد انقلب تفكيرك

إلى عمل ...

وإذا لم تسافر فإن الذى حدث هو التفكير ... فإذا  
اندج التفكير واتحد مع العمل ، فعنى ذلك أنك سافرت ؛  
أى أصبح الفكر هملا ، أى أنه لم يعد هناك تفكير وعمل ،  
بل عمل فقط ... لأن التفكير انتهى ... ابتلع فى جوف  
العمل ...

قد تقول : إن كل عمل هو إذن نتيجة تفكير  
سابق ؟ ...

هذا صحيح ...

العمل هو تفكير تحجر ونفذ ... أو إرادة تجمدت  
فى وضع نهائى ... والفكر هو إرادة حرة سائلة قابلة  
للتحرك والتكيف والتطور ...

فأنت عندما تفكر فى السفر إلى الريف للزهوة تستطيع  
أن تغير هذه الإرادة وتحركها وتطورها كيفما شئت ...  
ولكن إذا تحولت هذه الإرادة إلى عمل وتم السفر ،  
فإن الفكرة التى كانت طليقة قد تحجرت بمجرد تنفيذها ...

فالعقل إرادة تجسدت وتقيدت والتزمت بوضع خاص .

فالالتزام إذن من صفات العمل .

والحرية من صفات الفكر .

والفكر الذى يلتزم ينقلب إلى عمل .

وهذا بالضبط هو الذى يحدث فى الأحزاب السياسية

والاجتماعية ... فالبرنامج الحزبى : أى المذهب السياسى

أو الاجتماعى هو فكر تقييد - أى التزم - به الحزب .

فانضمام رجل الفكر إلى حزب من الأحزاب معناه

تقيده والتزامه بتفكير الحزب ... وهذا الالتزام يناقض

الحرية التى هى جوهر رسالته الفكرية ... لأن التزامه

بمذهب حزبه يحرمه مباشرة سلطة الفكر فى المراقبة

والمراجعة ... هذه السلطة الحرة التى هى أساس مسئوليته

الحقيقية ... وهو بذلك إما أن يخضع ويرضخ لحزبه ، وينزل

راضياً مختاراً عن وظيفة رجل الفكر ، ويصبح رجل عمل ...

وإما أن يصر على الصمود والاحتفاظ بسلطة وظيفته

الفكرية ، ويناقش أفكار حزبه ويوجهها ويطورها بمطلق الحرية التي تخولها له مسئولية رجل الفكر الحر ، وعندئذ سيجد نفسه مفصّولا عن الحزب ومطروداً أو مضطهداً .  
على أن ضعف أغلب رجال الفكر في العصر الحاضر ، وانهايار إيمانهم برسالتهم وقوة تأثيرها ، قد ربط الفكر في عجلة العمل ، وجعل الأقاليم في خدمة الحكومات ...  
واختل بذلك التوازن والتعادل بين القوتين .

ولعل اختلال التعادل بين قوة الفكر وقوة العمل هو من أسباب الكوارث التي تهدد هذا العصر الحديث ؛ فإن طغيان قوى العمل في هذا العالم وانحرافها نحو الاستعباد والاستعمار والسيطرة وإثارة الحروب المدمرة ، دون أن تجد أمامها قوى روحية أو فكرية معادلة تتسكتل لردّها إلى الصواب ، هو ولا ريب من أهم مصادر القلق الذي يخيم على الدنيا ، ويملا النفوس بشعور من ينحرف سريعاً إلى هاوية ...

**عرفنا** إذن قطبي النشاط الإنساني ، وهما : الفكر ،  
والعمل ... وقلنا لماذا يجب أن يحتفظ كل منهما بقوته  
الذاتية في نظر المذهب التعادلي حتى يتم بينهما التوازن ، لأن  
هذا التوازن هو الذي يكبح جماح كل منهما ، ويحول دون  
طغيانه المفسد لكيان البشرية .

وانتصر الحديث الآن على الفكر ، وعلى الأخص  
الناحية التي تهتمنا منه هنا : وهي « الأدب والفن » .  
هنا أيضاً نجد « التعادلية » ، تقيم الأدب والفن على أساس  
قوتين يجب أن تتعادلا ... هما : قوة التعبير وقوة التفسير ...  
فالآثر الأدبي أو الفني لا يكتمل خلقه ، ولا ينهض بهمته  
إلا إذا تم فيه التوازن بين القوة المعبرة والقوة المفسرة .  
ما هو المقصود بالتعبير هنا ؟ ... أهو الشكل ؟ ... لا ...  
بل إنه ليس الشكل فقط ... إنه شيء أكثر من ذلك ... ولا ضرب

لك مثلاً بسيطاً : فلنفرض أنك سمعت نادرة من النوادر.  
يلقيها شخصان ... أحدهما متكلم عادى ... والآخر محدث.  
لبق موهوب ... هذه النادرة الواحدة تتخذ عندئذ مظهرين  
مختلفين ... فهى فى الحالة الأولى تبدو مجرد حادثة ...  
أما فى الحالة الثانية فتبدو هذه الحادثة نفسها وكأنها لوّنت  
وأضيت وتحركت بحياة نابضة ، لا تدرى من أين أتت  
ولا كيف نفخت فيها ... تلك هى قوة التعبير ... لأنها ليست  
فقط طريقة الإبراز والإظهار ... لأن هذه الطريقة لا تقوم  
وحدها بغير الحادثة التى فى جوفها ... فالتعبير إذن ليس  
بمجرد الشكل ؛ بل هو الشكل والموضوع معاً ... هو الشكل  
والشئ الذى يتشكل فيه ... هو النادرة والأسلوب الذى  
رويت به ... فالأسلوب وحده بغير النادرة لا يعنى شيئاً  
فى ذاته ولا يعبر عن شئ ... فالتعبير إذن يستوجب  
وجود الأسلوب وموضوعه معاً ... لأن التعبير عن شئ  
يحتم وجود الشئ ...

وقوة التعبير هي أيضاً توازن وتعادل بين قوة الأسلوب  
وقوة الموضوع ...

فإذا طغى أحدهما على الآخر؛ فإنك تشعر في الحال أن  
الوضع غير طبيعي ... فالأسلوب البارع والموضوع النافه  
يشيران في النفس إحساساً بالتكلف ... وكلمة « التكلف » هنا  
ليست مجازاً ولا مجرد وصف أدبي ... بل هي ذات مدلول  
يكاد يكون مادياً ... فإن الأديب أو الفنان الذي يحتفل احتفالاً  
بالغاً بإبراز موضوع هزيل؛ إنما يتكلف فعلاً أمراً لا لزوم  
له ... كمن يرتدى ثياب السهرة ليجلس بمفرده في حجرته  
يتعشى بكسرة خبز! ... فعدم مراعاة مقتضى الحال تكلف ...  
والتكلف في الأسلوب قبح كما هو في الحياة ... لأن شرط  
الجمال الفني أن يشير في النفس إحساساً بأنه منبثق من نبع  
طبيعي ... ومهارة الفنان هي في إحداث هذا الشعور الطبيعي  
دائماً ... فإذا أحس الناس منه أن جماله خارج من نبع  
صناعي؛ فقد أخفق ...

كذلك الحال إذا طغى الموضوع على الأسلوب ...  
فالموضوع العظيم في الشكل السقيم يثير في النفس إحساساً  
بالتحسر ... كمن يصوغ اللواؤة في خاتم من الصفيح ...  
اختلال التعادل إذن في الحالين بين قوة الأسلوب وقوة  
الموضوع يحدث الشعور كذلك بأن الوضع غير طبيعي .  
قد تسأل : ما هو الأسلوب في الأدب والفن ؟ ...  
وما هو الموضوع ؟ ... الأسلوب هو طريقته الخاصة في  
الظفر بإعجاب الغير وشعوره وفكره ؛ ليرى ما ترى ،  
ويحس ما تحس ، ويفهم ما تفهم .

وهذه الطريقة في الأدب والفن مردها إلى الاستعداد  
الفطري والدرس الاكتسابي والاجتهاد الشخصي ... فلا بد  
من بعض الهبة ... ولا بد بعد ذلك من الدرس الطويل  
لمعارف الأعلام وأساليبهم من الأقدمين والمحدثين ، ولا بد  
أخيراً من تصرفك الخاص لتلائم وتوازن بين المحاكاة  
والابتكار ... فإن المحاكاة إذا غلبت عليك فأنت لم تضيف

شيثاً إلى من سبقوك ، وإذا أسرفت في الابتكار فقد قطعت  
الصلة بينك وبين الآخرين ، وانفصلت حياقتك من سلسلة  
التطورات الطبيعية في حياة الأدب أو تاريخ الفن ... هكذا  
فعل « شكسبير » و « بهوفن » فيما قاما به من محاكاة  
وابتكار ...

أما الموضوع في الأدب والفن ؛ فهو كل ما نستطيع أن  
تثير به اهتمام الناس ، على نحو غير مصف ولا فارغ  
ولا مبتذل .

وليس للموضوع العظيم أو التافه شروط معينة أو معالم  
محددة ... فتقديره متروك لعبقرية الأديب أو الفنان ...  
فقد يتناول بمواهبه السحرية موضوعاً نحسبه تافهاً ، فإذا  
هو يخاق منه بقلبه أو ريشته أو مطرقته أو ألسانه شيئاً يشير  
إلى اهتمام الناس في جيله وفي جميع الأجيال ... فالموضوع  
لا يتحدد صفته العظيمة أو التافهة إلا بعد أن يصب فعلاً في  
الأثر الأدبي أو الفني ... فالوردة أو الأنيبة أو النفاحة

قد تكون موضوعاً تافهاً أو عظيماً ؛ تبعاً للفنان الذى يتناولها ... أى تبعاً لدرجة خبرته واحساسه وقدرته على النفوذ إلى حقائق الأشياء ، أو تبعاً للطريقة التى يختارها الفنان ... فموضوع « هاملت » كان من الممكن أن يبقى موضوعاً تافهاً عادياً لو عالجه شاعر عادى ... وموضوع « هاملت » نفسه كان يمكن أن يصبح فى خفة موضوع « زوجات وندسور المرحات » ، لو أن شيكسبير اختار أن يجعل منه مسرحية ضاحكة طابثة بدلا من تلك المسرحية الفكرية الجليلية ... وشيكسبير كان يدرك بسايقته الفنية معنى التعادل بين الأسلوب والموضوع فكان إذا أراد الجدل اتخذ أسلوبه مايناسب ذلك من العمق ... وإذا أراد الهزل خفف أسلوبه فلم يثقله بكنوز فكره ... كان إذا أراد للفكر أن يتألق كالجوهرة كى يضيء حقائق الكون صاغه فى معدن نفيس من أسلوب عميق ... وإذا أراد للنفس أن تضحك لتلمر ساعة عن تعب الحياة استخدم معدناً رقيقاً من

أسلوب خفيف .

ولو أنه صنع العكس ، وكتب « هاملت » بأسلوب  
« زوجات » و« نندسور » ، « المرحات » ، لكان كالمصانغ الذي  
لا يستطيع أن يلائم بين الجوهر والحاتم ... والمقصود  
بالأسلوب هنا ليس بالطبع اللغة وحدها ؛ بل ما تحمله اللغة في  
جوفها من ألوان الصور والأفكار ... وأسلوب الفنان ؛  
بمعنى الطابع ، واحد بلا شك في سمته العامة ... ولكنه  
يتغير في درجة الدسامة أو الكثافة تبعاً لألوان الطعام الفني  
التي ينتجها ... فطابع « شيكسبير » واحد في فنه ، ولكن درجة  
الدسامة في أسلوبه تختلف باختلاف أنواع مسرحياته ...  
كذلك طابع « بهوفن » واحد في موسيقاه ، ولكن درجة  
الدسامة تختلف في بعض السنفونيات عنها في بعض  
السوناتات .

وهذه الدسامة والرقة والعمق والخفة ؛ حالات تتعاقب  
على الفنان ؛ تعاقب الليل والنهار ، والحريف والربيع ، دون

أن تخضع لترتيب منطقي ... فقد يرى البعض أن المنطق يقضي أن يبدأ الفنان حياته بالخفة وينتهي إلى العمق ... ولكن هذا المنطق لا يخضع له الفنان ، فـ « شيكسبير » بعد أن بهرنا بعمقه في « هاملت » ، أضحكنا بخفته في « العبرة بالخواتيم » . و« بتهوفن » بعد أن وضع في سائفونيته الخامسة العظيمة روح الفلسفة ، تجده قد مزج سائفونيته الثامنة الرقيقة بنسيم الخفة ، فالفنان لا يسير دائماً في خط مستقيم ... والتطور عنده ليس الانتقال المباشر من حسن إلى أحسن ، أو من عميق إلى أعمق ... ولكنه كالطبيعة يتطور من خلال التجربة الذاتية تبعاً لقانون الفعل ورد الفعل ... أي من خلال تجارب متباينة تكشف عن إمكانيات الذات في اتجاهاتها المختلفة ... والفعل ورد الفعل هما أداة التجربة الكاشفة عن الإمكانية ، لا عند الإنسان وحده ، بل عند الكائنات جميعاً ... فالشجرة تلتقل من الإخضرار في الربيع إلى الدبول في الخريف ، ثم تعود إلى الإخضرار ، ثم إلى

الذبول ، وهكذا دواليك ... وقد يبدو في ذلك أنها تدور  
حول نفسها ولا تتحرك ، ولكن هذه الحركة حول نفسها  
هي في ذاتها دليل الحياة ، وهي القوة الدافعة إلى الأمام  
بعد ذلك : أي إلى التطور من خلال الأجيال الأخرى  
المتعاقبة في الأشجار ... كذلك الحال في حياة الأرض  
والسكواكب ، فهي لا تسير في خط مستقيم على نحو مباشر ؛  
بل تدور أولاً حول نفسها ، ثم حول الشمس ، ولكنها  
مع ذلك تسير في الفضاء إلى الأمام في إطار المجموعة  
الشمسية بأكملها ... كذلك الحال أيضاً في الإنسانية :  
فإن الحضارة فيها يتقاذفها الفعل ورد الفعل ، فتقع حيناً  
في الظلام ، ثم تعود إلى النور ، في حركة كحركة الليل  
والنهار ، ولكنها مع ذلك تسير ... فكلمة التطور إذن  
لا تعني — عند الطبيعة والبشرية والفكر والفن — السهر  
إلى الأمام سيراً معارداً مباشراً ... ولكنه التقدم خلال  
اختبارات وعقبات الفعل ورد الفعل ... فنحن جميعاً من

بشر وأرض وكواكب نسير ونحن ندور ، ونصل إلى  
الغد من طريق دورة الليل والنهار وتعاقب الظلام  
والنور ... ف فكرة التطور على هذا الوجه تجدها في مسرحيتي  
« شهر زاد » ...

ومع ذلك ، من يدري حقيقة ما نسميه النور والظلام ،  
والارتفاع والانخفاض ، والعمق والخفة ، والسمامة  
والرقة ؟ ... لعلمها كلها ، على اختلافها ، حركات  
ضرورية لتكون الحياة حياة ... ولعلمها كذلك في  
عجيب الأدب والفن ، هي العناصر الضرورية التي يتألف  
منها « التعبير » .

فلماذا التعبير عند الأديب أو الفنان لا يمكن أن تظهر  
كل أشعتها وألوانها وأنغامها إذا لعب بها على وتر واحد  
مهما يكن هذا الوتر قوياً بليغاً صافياً نقياً ... ماذا كنا  
نفضل وماذا كان يفضل الفن الإنساني ؟ ... أن يخرج لنا  
شكسبير كل مسرحياته على نسق « هاملت » ، أسلوباً

وفكراً وارتفاعاً ؟ ... أو يلون لنا كل هذا التلون .  
في التعبير ، فيجدد مرة ويهزل أخرى ، ويعبس ثم يبسم ،  
ويرتفع ثم يتبسط ، ويطرق متأملاً ثم يقهقه ضاحكاً ،  
ويكون تارة فيلسوفاً وتارة مهرجاً ، وحيناً شاعراً ،  
وحيناً ساخرأ ... إن عظمة شيكسبير هي في أنه استطاع  
أن يكون كل ذلك ... وقدرته هي في أنه ملك من أوتار  
التعبير مقداراً أخرج كل الألوان وكل الأنغام وكل الأصوات .  
وكل الضحكات ...

ذلك هو « التعبير » ...

قوته ليست في مجرد ارتفاعه ؛ بل أيضاً في الساعه ...

والتعبير من غير شك هو كل شيء في نظر الفن ...

ولسكن « التعبير » ليس كل شيء في نظر « التعادلية »

قوة « التعبير » عند « التعادلية » يجب أن تقترن في الأدب

والفن بقوة « التفسير » ...

ما هو « التفسير » ؟ ...

هو الضوء الذى يلقى على موضع الإنسان فى السكون  
والمجتمع ...

فالأدب أو الفن التعادلى يجب أن تتوارن فيه القوة  
المعبرة والقوة المفسرة ...

فالقوة المعبرة وحدها لا تكفى ، لأنها قد تكشف عن  
بمجرد وجودها ... ولكنها قد لا تشع ضوءاً يكشف عن  
وجود غيرها ... القوة المعبرة قد تكون جميلة فى ذاتها  
كاللؤلؤة ... ولكنها مثلها : حبيسة جمالها ... لا تضيء  
غيرها ... إنها ليست كاللماسة المتألقة التى تشع فى الظلام  
أضواءً تكشف عن وجود أشياء أخرى ...

والأديب أو الفنان قد يعبر عن الحياة ، ولكنه  
لا يفسرها ... أى أنه قد يجيد وصفها بالحالة التى هى عليها ،  
أو يجملها بوشى مصطنع ، أو يقبحها بتشويه مقصود ، وهو  
فى كل هذه الأحوال يريد اللهب بأداة التعبير تارة ، أو استخدامها  
للدعاية تارة أخرى ...

ولكن الوقوف عند حدود التعبير ليس كل مهمة الأديب  
أو الفنان المتعادل ... لأن التعبير وحده على علو قيمته  
الأدبية والفنية ، قد يجبس أهداف الأدب والفن في نطاق  
التهديب الروحي والإمتاع النفسى ، ومهما يكن نبل هذه  
الأهداف وكفايتها ، فإن المطلوب من الأديب أو الفنان  
— خصوصاً في العصر الحديث — أن تمتد رسالته إلى أبعد  
من هذا النطاق .

المطلوب منه هو أن يهذب ويمتع ، ثم يلتقى في نفس  
الوقت ضوءاً كاشفاً موجهاً في طريق الإنسانية ،  
فالادب أو الفن يجب أن يكون معبراً ومفسراً : أى أن  
تتعادل قوى التعبير وقوى التفسير في الأثر الأدبي أو الفني ...  
فإذا طغت قوة التعبير طغياناً بالنأ ، فإن قسطاً هاماً من رسالة  
الأديب أو الفنان لم يبلغ للناس ... وإذا طغت قوة التفسير  
حتى كادت تتلاشى بجانبها قوة التعبير ، فإن صفة الأدب  
أو الفن ذاتها تهدد بالانتهيار ... إذ لا بد لوجود أى أدب

أو فن من ضمان قوة التعبير قبل كل شيء ... فوهبة التعبير  
الأدبي أو الفني ، أي بالاختصار : الأديب أو الفنان يجب  
أن يوجد أولاً بأداة أسلوبه الرائعة الباردة القوية قبل النظر  
في أمر الرسالة التي سيحملها .

التعبير يشمل الأسلوب والموضوع : أي الشكل  
والمضمون . وبه يمكن أن يتم الأثر الأدبي أو الفني  
في ذاته ...

أما التفسير ؛ فهو الرسالة التي يحملها الأثر الأدبي أو الفني  
بعدئذ للبشرية ، ليقول فيها كلمته عن وضع الإنسان في كونه  
وفي مجتمعه .

وليس كل أثر أدبي أو فني يحمل تفسيراً أو رسالة في  
هذا الشأن ، فكثير من الآثار رسالته هي في مجرد روعة  
تعبيره ... فالبحثى مثلاً هو تعبیر ... في حين أن أبا العلاء  
تعبير وتفسير معاً ، لأن الكثير من شعره يحمل إلينا رأيه  
في وضع الإنسان ومصيره ... وشيكسبير هو في شعره الغزلي

تعبير ، أما في مسرحياته — مثل « هاملت » وغيرها —  
فهو تعبیر وتفسير معاً .

ويتهوفن في « سوناتا ضوء القمر » هو تعبیر ... بينما  
هو في السنفونية الثالثة يحمل إلينا كلته في الإنسان والبطولة ،  
وفي السنفونية الخامسة ينقل إلينا قوته في الإنسان  
والقدر ... وكذلك في السنفونية التاسعة وفي كثير من  
كونسيرتاته يريد أن يقول لنا شيئاً أكثر من مجرد  
اللحن الجميل .

والتعبير وحده قد يؤدي إلى « الفن للفن » إذا أمرف  
في الهيام بجمال الشكل والتألق في المبني على حساب المعنى  
والمضمون .

والتعبير وحده كذلك قد يؤدي إلى « الفن الملتزم »  
إذا أمرف في التقيد بمعنى خاص ومضمون معين ليس إلى  
التحرر والاستقلال عنهما من سبيل .

فالفن للفن هو حبس الفنان في هيكل الشكل .

والفن الملتزم ؛ هو حبس الفنان في سجن المضمون .  
والسجن في الحالين يمنع الفنان من تبليغ رسالته  
كاملة ... تلك الرسالة التي تنبع من الحرية دائماً ،  
لتبشر بالحرية .

تحرر نسألني بعد ذلك :

هل الحرية في الأدب أو الفن مناقضة للإلتزام ؟ أليس  
للأديب أو الفنان أن يلتزم برأى يدافع عنه ويبلغه  
الناس ؟ ... وما دمنا نقول إن للأدب أو الفن المعبر للمفسر  
رسالة يحملها للبشرية ، فكيف تكون رسالة بغير الإلتزام  
بالتبليغ ؟ ...

ما من شك في أن مجرد حمل رسالة معناه الإلتزام  
بتبليغها... ولكن الخلاف دائماً هو في مصدر الرسالة التي  
يحق للفنان أو الأديب الحر أن يحملها ؟ ...

هل يحق للبفكر الحر أن يحمل رسالة تصدر من سلطة  
« العمل » ؟ ... في هذه الحالة سيكون مجرد آلة مسخرة ،  
لأداة مفكرة ... وإذا آمن حقاً بهذه الرسالة ، هل  
يجوز له الإلتزام ؟ ... في رأيي نعم ...

ولكن من جهة أخرى : الإيمان الطويل الأمد هو  
بالنسبة إلى الفكر عامة ... لأن الفكر السليم هو الفكر  
المتحرك ... وحركة الفكر معناها حرية شكه ... وحرية  
الشك معناها حرية المراجعة للقيم والأوضاع ...  
فإلى أى مدى إذن يباح للفكر أن يراجع الرسالة التي  
التزم بحملها ؟ ...

فإذا قيل له : لا تستطيع أن تراجع أو تناقش أو تتحلى  
بما التزمت به ، فمعنى ذلك هو إلغاء الفكر وتحويله  
إلى إيمان ...

فنحن إذن أمام مشكلة :

لأن الالتزام الطويل الأمد برأى معين يؤدي إلى  
الإيمان ... والإيمان يؤدي إلى تعطيل الفكر ... والفكر  
يجب أن يتحرك ليوجد للفكر ... والفكر إذا فكر  
ناقش الالتزام ، وقد تؤدي مناقشة الالتزام إلى التحلل منه ...  
لذلك عندما ينبع الرأى الملزم من سلطة العمل ، أى سلطة

حكمة ، فإن مناقشة الإلزام لا تباح ولا تشجع ... فيصبح  
الرأى شبه إيمان ...

ولسكن الإيمان في الرسائل السماوية مقبول ، لأن  
الأمر كله متعلق بموضوع علوى بعيد عن متناول الفكر ،  
فتحن عندما تؤمن بفكرة الله قد رضينا مختارين أن نلتزم  
بتعطيل التفكير في ماهيته وفي حكمه . واكتفينا بالإيمان ،  
تعلنا أن فكرنا البشرى لا يصلح أداة لإدراك قوانين من  
هو فوق البشر | ...

ولسكن السلطة الحاكمة أو السلطة الممثلة للعمل في دولة  
من الدول ، لماذا تعطل أمامها فكرنا وملتزم برأيها مؤمنين  
بها الإيمان الذى لا يقبل التحيص ولا المناقشة  
بولا المراجعة ؟ ... فالإلزام الدائم إذن برأى صادر من  
سلطة بشرية هو نوع من الإيمان لا يجب أن يفرضه بشر  
على بشر ...

أما الإلزام المباح في نظرى للفكر أو الأديب أو

الفنان، فهو ذلك الذي لا يعطل تفكيره الحر، ولا يمنعه من أن يناقشه ويراجعه ويمدّله في أى وقت شاء، سواء كان هذا الالتزام صادراً عن رسالة خاصة له، أو رسالة عامة للدولة كلها، أو الحزب فيها....

ولقد سبق لى أن عرضت موقفي تجاه الإلتزام فى الأدب... فقلت فى كتابى «فن الأدب»: «إن الأديب يجب أن يكون حراً... لأن الأديب إذا باع رأيه، أو قيد وجدانه، ذهبت عنه فى الحال صفة الأديب، فالحرية هى نبع الفن... وبغير الحرية لا يكون أدب ولا فن... لأن الذى يقول لفنان أو أديب: التزم بكذا أو بكيت فقد قتله... إنما التزم الأديب أو الفنان شيئاً ينبع حراً من أحماق نفسه... فإن لم ينبع الإلتزام حراً من قلبه وبيئته وعقيدته فلا تلزمه أنت ولا تلزمه قوة فى الوجود... يجب أن يكون الإلتزام جزءاً من كيان الأديب أو الفنان... فالإلتزام المشر للفنان فى رأى هو الإلتزام الذى ينبع من

طبيعته ، وهنا لا يتعارض الإلتزام مع الحرية ... قد تسألني  
عن مدى انطباق هذا الرأي على ما كتبت ؟ ... فأقول لك :  
ارجع كذلك إلى كتابي « فن الأدب » ، فقد ذكرت فيه :  
أن الموقف مختلف كل الاختلاف فيما يختص بإنتاجي أنا  
على وجه خاص ، فعلى الرغم من منادائي بالحرية ، فإن عملي  
في أكثر كتبي هو من الأدب الملتزم ... إنني منذ أمسكت بالقلم  
ما حاولت قط أن أنشئ لنفسي أسلوباً جميلاً يتميز بجزالة  
اللفظ وحسن الديباجة بما يستهوى القارىء بحلاوة الجرس  
والرنين ... هذا الفن للفن في الأسلوب ما خطر لي أن  
أمارسه ، ولكنني أردت أن أتخذ من الأسلوب عادماً  
لأهداف أخرى غير مجرد الإمتاع ... هذه الأهداف  
— كما ظهرت واضحة للناس — كانت قومية وشعبية  
وإصلاحية في « عودة الروح » ، وفي « عصفور من الشرق » ،  
وفي « يوميات نائب في الأرياف » ، وفي « مسرح المجتمع » ،  
إلخ ... وكانت مذهبية متصلة بمصير الإنسان : في « أهل

الكهف ، وفي « شهرزاد » ، وفي « سليمان الحكيم » ، وفي  
« بجماليون » ، وفي « الملك أوديب » ، إلخ ... فهذه القصص  
لم تكن لإظهار جمال الأسطورة ، كما كتبت « مجنون  
ليل » ، « اشوقي » ، فأظهرت جمال الشعر والمواطف والشعور ،  
وأبرزت روعة الفن للفن نفسه ، لأنها كانت هذه الأساطير  
والقصص وسيلة لهدف آخر ، لا غاية في ذاتها ... قضية  
خاصة بالإنسان ومصيره ...

فأنا في الحقيقة لم أكتب لأعبر فقط ، بل لأفسر ...  
واقدر أن أكون من الممكن أن تكون « عودة الروح » ، مثلاً مجرد  
قصة تصور الحياة في حي السيدة زينب بين أسرة متواضعة ،  
وتخلق أشخاصاً نابضين بالحياة يعيشون في صميم بيتهم ، وفي  
هذا الكفاية من حيث الفن ، لأن خلق الحياة هو عمل  
في الفن كاف ... ولكنني ألزمت نفسي بتفسير خاص للروح  
المصرية فلم تنته مهمة القصة عند حد التعبير والتصوير  
لبينة وأشخاص . بل اتخذت موقفاً ينم عن رأى معين ؛

وهذا الرأى استخلصه النقاد الأجانب من زوايا مختلفة ،  
وإن كان واحداً في جوهره ، فالناقد « جان ديستور » قال :  
« إننا نليس مؤلفاً من تلك المؤلفات التي لو وجدت عندنا  
لنعتها « موديس بريس » بقصة النشاط القومى ، وليس  
للدلوها غير تفسير واحد : هو أن الروح العائدة إنما  
هى « روح فلاحى مصر العريقة فى القرية » ... وقال الكاتب  
اليسارى النزعة « مارسيل مادينييه » : إنه لمن الظاهر فيه  
— فضلاهن ذلك — وجود بعض عناصر أدب « الطبقات  
الفقيرة » أو على الأقل أدب شعبى لاشك فيه ، ... وقالت  
الكاتبة « تيريز ميران » : « إن عودة الروح » ليس مؤلفاً  
وليده الخيال ، ولكنه مستند على الحالة الاجتماعية لشعب  
فى حالة تطور سريع ... » .

فعودة الروح ليست إذن قصة تصور حياة ، ولكننا  
بعد ذلك قصة تفسر حياة ، وتفسر حياة شعب معناه اتخاذ  
رأى معين تجاه هذا الشعب ... ولقد كان لفكرة

الرواسب القديمة التي تراكت على مدى الحضارات المختلفة  
في أعماق الشعب المصري؛ فسكونت منه قدرة خفية تسعفه  
في أزماته وترد إليه دوحه كلما استهدف لخطر التلاشي  
والانهيار... هذه الفكرة التي اعتنقتها القصة كان لها أثر  
— كما لاحظ بعض نقادنا— في مجال « العمل » : أي السياسة .  
هذا التفسير أيضاً : أي الرأي والموقف تجاه الحكام  
والحكوميين قد ظهر في « يوميات نائب في الأرياف » فهي  
ليست مجرد تصوير لحياة الفلاح ، ولكنها كما قالت صحيفة  
« سبكتاتور » الانجليزية : « إن في هذا الكتاب عن مهزلة  
الفساد الاجتماعي أكثر من مجرد استنكار ، وكما حدث مع  
كتاب الروس في القرن التاسع عشر ، وكما حدث مع كاتبنا  
« ديكنز » يشعر الكاتب المصري أن مجرد العطف  
لا يكفي... الخ . »

من هذه التعليقات التي أذكرها ، نستطيع أن نجد

جواباً عن سؤالك ، وتعرف اتجاهي من كتي نفسي  
كما طلبت ...

وهنا أذكر أيضاً ملاحظة لأحدهم في تفسير مسرحيات  
الذهنية بأنها تكشف عن جو الإنسان تجاه مصيره ، فقد  
رأى أن هذا الوضع للإنسان سبق أن أبرزه سوفوكل  
في «أوديب» إبرازاً صادقاً ... كما أظهره شكسبير في  
«روميو وجولييت» على أروع صورة ... فالألمة قد  
أرادوا حامدين أن يحطموا أوديب ... والقد تدخل تدخل  
مباشراً على شكل مصادفات متلاحقة فرقت بين روميو  
وجولييت ... ولكن الذي تم عندي في رأيه هو أنه  
لم يحدث أي تدخل مباشر ، لا في هيئة إرادة علوية متعمدة ،  
ولا في صورة مصادفات طارئة ؛ بل هي قوانين خفية تسيطر  
في اتجاهها العادي ، فتحد من إرادة الإنسان ... فقانون  
الزمن في «أهل الكهف» يعمل عمله المعتاد فيسير قسماً  
ولا يغير اتجاهه ، ولا يعود إلى الوراء ثلثائة عام ليجمع

بين مشلينيا وبريسكا ... فالقوة التي فرقت بين مشلينيا وبريسكا ليست هي القوة القدرية المعاكسة التي فرقت بين روميو وجوليت ، بل جعلت المصادفة في أول الأمر تدفع روميو إلى قتل ابن عم جوليت ، ثم جعلت المصادفة في آخر الأمر تحدث طاعوناً يعطل الرسول الحامل إلى روميو رسالة بما يدبر ، مما أدى إلى المأساة ... كلا ... إن المأساة المفرقة بين الحبيبين في « أهل الكهف » هي قوة طبيعية ... هي قوة الزمن : أي المجتمع الجديد ... فبريسكا أيقنت أن من المستحيل أن يقبل مجتمعها فكرة الجمع بينها وبين رجل عاش منذ ثلثمائة عام ... قوة المجتمع هذه ظهرت كذلك عندي في مسرحية « الملك أوديب » ... فهو عندما قيل له إنه متزوج بأمه لم يتصور ذلك ، لأنه لم يرها إلا امرأة في تمام نضجها فأراد أن يصمد كما أراد مشلينيا أن يصمد ، وأن يتحدى وأن يبقى على أسرته ، ولكن جوكانستا - شأنها شأن بريسكا - لم تستطع تحمل هذا

المخاطر ... إن قوانين المجتمع المتأصلة في أعماق كياناتها  
قد حكمت عليها بالفناء ، فشنتت نفسها ...

إرادة الإنسان عندي إذن حرة في حدود خاصة ، وهذه  
الحدود هي قوانين ، وليست إرادات طاغية .. هي نواميس ،  
وليست مصادقات طارئة ... فالإنسان عندي طائر حقا  
أمام مصيره في النهاية ... هذا المصير الذي تدفع إليه قوانين  
ونواميس يحاول دائما أن يتخطاها أو يحطمها ... نعم ...  
إن من يعن النظر في هذه المسرحيات يجد مشلينا يحاول  
ذلك ويمسك بكافح ليقنع بريسكا بتجاهل عقبة الزمن ...  
ونجد شهبان يحاول تحدي النواميس بمحاولة تحطيم  
بشريته ... وتجد سليمان يحاول تحدي قانون الحب واقتحام  
قلب بلقيس ، وأوديب أراد تحدي المجتمع والبقاء مع أمه  
زوجا ... وپهباليون أراد تحدي الآلهة وتحطيم التثال الذي  
أفسدوا فنه بما تفخوه هم فيه من روحهم ... جميع هؤلاء  
الأشخاص لم يستسلموا لمصيرهم إلا بعد التحدي والنضال

والكفاح ... ولقد أرغموا إرغاماً على التسليم في آخر  
الأمز ... لأن القوى المسيطرة ليست من صنع البشر ...  
ولكن يبقى الكفاح — ولو ضد المستحيل — وهو وحده  
واجب البشرية ...

**التفسير** إذن في الأثر الأدبي أو الفني هو مناط  
المسئولية ... لأنه هو الرأى ، وهو الموقف ... وما دام  
هناك رأى ، فهناك التزام به ، ومسئولية عنه ...  
أما التعبير فهو حر طليق كالحياة نفسها ، ما لم يقيد  
نفسه كما قلنا بالمغالاة في الشكل فينحرف إلى الفن للفن أو  
يحبس نفسه في مضمون دائم معين بالذات فيصبح شأنه شأن  
الفن الملتمزم ...

وهنا قد يخطر على بالك سؤال :

ما هو الفرق بين الإلتزام في التعبير والإلتزام  
في التفسير ...

ما دام كل منهما يمكن أن يؤدي إلى الفن الملتمزم ؟ ...  
جوابي : هو أن الإلتزام في التعبير قد لا يعكس رأياً  
مخاصاً ، فالموقف هنا هو مجرد الارتباط بموضوع بالذات ...

كان يمكف الأديب أو الفنان على تصوير طبقة معينة من طبقات الأمة لا يحيد عنها ... ولسكنك لا تلس من خلال هذا التصوير والخلق فى هذه البيئة المعينة : أى اتجاه شخصى أو رأى خاص ... أعنى أى تفسير بعينه ...

فى حين أن الإلتزام فى التفسير لا يتقيد بالموضوع ... ولسكنه يتقيد بالرأى ... فالأديب أو الفنان هنا يعالج الموضوعات المختلفة ويصور الطبقات المتباينة ، ولسكنك تخرج من أعماله كلها بتفسير خاص : أى برأى وبموقف وباتجاه ...

وكما قلنا : حيث يوجد الرأى توجد المسئولية ... ولسكن المسئولية ، كما عرفنا ، لا تتبع إلا من الحرية ... لأن للمقيد غير مسئول ...

فكيف نوفق إذن بين الإلتزام والمسئولية و « الحرية » ؟ ...

لا يمكن التوفيق إطلاقاً إلا إذا كان الرأى رأيك

أنت ، والإلتزام به نابعاً من طبيعتك أنت ، كما سبق أن  
قلت لك ... أى أن الرأى والالتزام يجب أن يكونا  
صادرين من صميم حريتك ، لتكون مسئولاً عنهما  
مسئوليتك عن حريتك ... مسئول أمام من ؟ ... أمام  
نفسك وحدها التى منها خرج الرأى حراً ...

وما هنا كل الجوهر فى كيان المفكر الحر :

الرأى رأيه ، ومسئوليته أمام نفسه .

فإذا كان الرأى صادراً من سلطة العمل : أى  
سلطة الحكم ، وكانت المسئولية أمام هذه السلطة  
أيضاً ، فما هو القول ؟ ...

لا قول سوى أن «الفكر» بمسئوليته يكون  
هندسة قد نعى بجانباً ليقوم «العمل» وحده بالأعباء  
والثبعات ... ولقد قلتما فيما سبق : « إن أزمة العالم اليوم  
مردداً إلى أن سلطة العمل قد اغتصبت المسئولية الكاملة  
فى إدارة دفة الدنيا وتوجيه مصائر البشر » .

ما من أحد اليوم يستطيع الزعم بأن «الفكر الحر»  
هو الذي يوجه طائنا الحاضر... لقد اضطهد علماء الذرة  
الذين رفضوا الرضوخ لأوامر السلطات الحاكمة، رغبة  
منهم في إنقاذ البشرية ونزولاً على حكم مسئولياتهم أمام  
أنفسهم وضمائرهم.

أما بقية العلماء والمفكرين فقد أذعنوا وسايروا  
وتعاونوا.

في كل دول الأرض نجد سلطة العمل متفاهمة متحدة  
في وضع واحد: هو إخضاع الفكر لخدمة أغراضها.  
هذا الاتحاد والتفاهم من جانب «العمل» يقابله اختلاف  
وانشقاق من جانب «الفكر».

ماذا لو استطاع «الفكر» في كل أمم العالم أن يتحد  
ويتفاهم ويوحّد سلطانه، ويقول كلمته الحرة في وضع  
البشرية، ويحمل مسئوليته أمام نفسه وحدها، ويرفض في  
وقت واحد، في كل رقعة من الدنيا، أن يتعاون مع

سلطات العمل فيما يعتقد ويقرر أنه ضار بمصلحة الإنسان  
والإنسانية ؟ ...  
ماذا لو وقف الفكر كله في الدنيا كلها هذا الموقف  
الموحد ؟ ... أترك التقدير لك ...

من هنا جاء إصرارى على احتفاظ سلطة الفكر بحريتها واستقلالها تجاه سلطة العمل ، وقد طبقت هذا المبدأ حتى الآن على شخصى تطبيقاً صارماً ... فابتعدت عن محيط السياسة العملية ، ورفضت الانضمام إلى الأحزاب السياسية ، واعتبرت المفكر كالأراهب ، مسووحه هي حرية ... وتحدثت عن البرج العاجى والاعتصام به ... ولم أقصد بذلك طبعاً العزلة عن الحياة والانفصال عن المجتمع ، كما فهم البعض خطأ ، ولكنى قصدت عزل رجل الفكر عن السياسة الحزبية ، حتى لا يستخدم آلة مسخرة فى أيدي رجالها ، فيفقد بذلك حرية النظر الحر إلى الأشياء ...

هذا الإصرار منى ، على الرغم من الظروف المواتية التى عرضت لى مراراً للائخراط فى سلك حزب ، والوصول به إلى السلطان العملى ، قد بلغ أحياناً حد الغلو والإغراق ...

ولكن الفكرة التي استولت على رأسي ، ولم تزل ، هي :  
أن مسئولية المفكر الحر الحقيقية إنما هي أمام نفسه وحدها  
لا أمام حزب من الأحزاب ، ولا حاكم من الحكام... وأن  
المفكر الذي يترك مكانه لينضوي تحت لواء سلطة العمل  
الممثلة في حزب أو حكم هو مفكر هارب من رسالته ...  
وأن هذا الهروب إلى معسكر السلطة والحاكمين هو الذي  
جرّد الفكر من سلطانه ، وجعل منه تابعا لامتبوعا ...

ولم يخطر في بالي قط أن أعزل الفكر عن أي نشاط  
سياسي أو اجتماعي ... فالعزلة التي دعوت إليها هي العزلة  
عن السياسيين لا عن السياسة ، وعن الأحزاب لا عن  
المجتمع ... فالفكر في كل ألوانه من أدب وقصص وفن يجب  
في نظري أن يعني بكل ما يجري في مجتمعه وعصره من  
شئون السياسة والاجتماع ... لأنه ما دام يعني بالبشرية ،  
وما دامت البشرية متصلة بالسياسة والمجتمع ، فلا بد للفكر  
أو الأديب أو الفنان أن يعيش عصره كله ومجتمعه كله

بما فيهما من شئون سياسية واجتماعية ... لأن تلك هي  
البشرية ... وفي كتبي : تحت « شمس الفكر » و « شجرة  
الحكم » و « تأملات في السياسة » و « براكسا أو مشكلة  
الحكم » ... الخ ... خلاصة وافية لموقفى من السياسة  
والمجتمع ...

قال أحدهم : إن موقفى لم يتخذ وضماً عملياً ...  
وهذا صحيح ... لأن هذا بالذات هو منهدى ، فذهي  
يرفض رفضاً قاطعاً أن يغير الفكر صفته ، وأن ينقلب  
حلاً ...

ولأننى حتى الآن لم أفقد الأمل فى قوة الفكر باعتباره  
سلطة مستقلة لها مقوماتها الخاصة وصفتها الذاتية ... وعندما  
أفقد هذا الأمل ، سألتبس فى الحال المعونة صاغراً لدى  
« العمل » ... وعندئذ أسير فى اتجاه بعض المذاهب الأدبية  
والفنية التى خضعت للعمل أو اندججت فيه ، فأصبح من  
العسير عليها أن تنفض عنها بعض خبار الدعاية أو التسخير

الذى لحق بها بالباطل أو بالحق ...

قد تسألنى إلى أى مدى يستطيع الفكر المستقل أن يؤثر

فى « العمل » ؟ ...

ما من شك عندى فى أن الفكر المستقل يؤثر إلى مدى

بعيد فى « العمل » ... أبعد بكثير من أثر الفكر المندمج أو

الخاضع للعمل ...

لأن الفكر المندمج أو الخاضع يصبح حزباً أو تابعاً فى

محيط الحكم السياسى ، وبذلك يفقد هيئته وكنيته ، لافى

نظر الأحزاب الأخرى ، بل فى نظر حزبه نفسه أحياناً ...

فلا يسمح له بالتوجيه أو بالإيحاء ؛ بل يتلقى تعليمات رؤساء

العمل للسير بمقتضاها ...

وقد تسألنى بعد ذلك : هل كان لموقفى المستقل أثر فى

« العمل » ؟ ...

الحقيقة أنى لا أستطيع أن أجيب بنفسى إجابة قاطعة ؛

فمن العسير علىّ أن أعرف أثر كتاباتى فى الغير على وجه عام ...

ولا أعتقد أن كتاباً مثل « يوميات نائب في الأدياف » كان له أثر مباشر في إصلاح بعض ما أبرزه من عيوب الحكم والقضاء والإدارة في الريف ... وإن كنت أعلم أن كثيراً من رجال الدولة قد طالعوه ...

على أن رأي دائماً في رجال الفكر والأدب والفن أنهم ليسوا مطالبين بالإصلاح المباشر ... إن مهمتهم الحقيقية هي أن يمدّوا ويهيبوا رجال العمل والدولة والحكم للقيام بالإصلاح ... لقد قلتها يوماً في كتاب لي : « إن الأديب أو الفنان ليس مصلحاً ، ولكنه مصلح المصلح » ...

غير أني أستطيع رغم ذلك أن أقول إنى رأيت مرة أترا مباشراً لكتابتى في أمر من أمور المجتمع ... فقد كتبت ذات يوم أقترح إنشاء وزارة لشئون المجتمع ، كما اقترحت أسماء وزراء بالذات ، من بين الموظفين الأكفاء ، فما انقضى شهران حتى تقلد الحكم رجل من رجال الدولة فنفذ الاقتراح وأنشأ وزارة أطلق عليها اسم « وزارة الشئون

الاجتماعية، ، واختار عين الموظفين الذين اقترحهم ونداء  
في حكومته ... كيف تم هذا ؟ ... لا ريب أن استقلالى  
الفكرى يسر كل ذلك ... فلو أن كنت كاتباً حزبياً  
لما أوحيت بهذه الثقة ... ولكانت أسماء الذين اقترحهم  
عمل ظنون، ولسكان الاقتراح كله موضوع صحفية متحدية  
وردية مستعلية ... إن «الفكر» المستقل الحر يستطيع  
دائماً أن يكون سلطة هامة معادلة وموازنة لسلطة  
«العمل» ... وفي هذه الحالة يكون في مقدور «الفكر»  
أن يصبح قوة دافعة وموجهة ومطورة لسلطان «العمل» ...  
هذا مذهبي ...

**قلت لك إن التعبير هو موهبة الخلق والإبداع ...**  
وإن التفسير هو الضوء السكاشف لوضع الانسان ...  
ولأوضح مرة أخرى هذا التعريف :  
إذا كنت تعبر عن الحياة ولا تفسرها ، فأنت أديب  
أو فنان ...

وإذا كنت تملك تفسيراً للحياة ، ولا تملك موهبة  
التعبير عنها فأنت أي شيء إلا الأديب أو الفنان ...  
وإذا كنت معبراً ومفسراً للحياة ، فأنت أديب أو فنان  
ذو رأى وموقف واتجاه ، ومن ثم فأنت مؤثر بطريق ما في  
التطوير والتوجيه ...

هناك مع ذلك حالات يستطيع فيها التعبير وحده، إذا كان  
بالغ القوة، أن يحدث أثراً موجهاً مطوراً بطريق غير مباشر ...  
كما أن هناك ، كما سبق أن أشرت ، حالات يفسد فيها

التفسير روعة التعبير ، إذا خرج عن حدود التناسق الفني ،  
وعندئذ يبطل تأثيرهما معاً ، لأن الأثر الأدبي أو الفني يبدو  
عندئذ مفتعلاً افتعالاً مضميماً لجوهر وجوده وهو الصدق...  
والمقصود بالصدق هنا هو الصدق الفني ، أى الشعور  
المنبعث فى نفوسنا بأن الأثر الأدبي أو الفني قد ولد ولادة  
طبيعية ، ولا يمكن بالطبع أن تكون الولادة طبيعية إلا إذا  
خرج الأثر الأدبي أو الفني متناسق الأجزاء متناسب  
الأعضاء ... فإذا طغى فيه جزء على جزء فإنه يعتبر مستخفاً  
مشوهاً ، حتى وإن كان جميل الوجه ...  
من أجل هذا كله كان الشرط الضرورى لحياة التعبير  
والتفسير معاً هو إيجاد التناسب والتناسق بينهما أى :  
التعادل ...

**قلت** لك أيضاً إن سلطان الفكر يجب أن ينهض  
معادلاً لسلطان العقل ، فما هو المقصود بالفكر هنا ؟ ...  
هل هو العقل وحده ؟ هذه نقطة تحتاج كذلك إلى توضيح ،  
فالفكر المعادل والموازن للعمل إنما يشمل عندى القوى  
العقلية والقوى الروحية معاً ، خصوصاً في نطاق الأدب  
والفن ... وهذه مسألة تختلف فيها المذاهب الأدبية والفنية  
المعاصرة ... فأكثرها يطرح القوى الروحية أو الدين ،  
ولا يستبق غير القوى العقلية يستمد منها وحدها كل عناصر  
نشاطه ... من ذلك وجودية سارتر، والواقعية الاشتراكية،  
وغيرهما من المذاهب التي يصفونها بالمادية لأنها تقصر قوى  
الفكر فيها على العقل بمنطقه وحده ...

أما التعادلية فتطلق « الفكر » على قوتين ... هما العقل  
والقلب ، أعني « المنطق » و « الإيمان » ، باعتبارهما

منبعين للمعرفة البشرية ؛ لأن الحيوان الذي لا يعقل  
ولا يؤمن لا يملك غير منبع واحد للمعرفة هو : الغريزة ...  
والحيوان لا يؤمن ، لأنه - كما أشرت - لا يدرك معنى  
الأرقى ...

فالإنسان : الكائن الوحيد الذي يدرك ويعي الأرقى ،  
إتباعاً يتموسل إلى هذا الإدراك والوعي بوسيلتين : المنطق  
المنبعث من العقل ، والإيمان المنبعث من القلب ، الأول  
عكازه الدليل البين ، والآخر عكازه الشعور الخفي ...

وما دامت هاتان الوسيلتان قد منحتا للإنسان ، فلا بد  
إذن من بقاءهما وتقويتهم وإتمامهما والبلوغ بهما أقصى  
حدود القدرة ، كل منهما في مجاله ...

وقد سبق أن أشرت كذلك إلى أن الخطأ بينهما  
يهت ... كما أن إخضاع كل منهما لمقومات غيره يهت  
أيضاً ... فالعقل يجب أن يشك دائماً ويطلب بالدليل ...  
والقلب يجب أن يؤمن دائماً ويعتق من الدليل ...

كل منهما يجب أن يجرى في فلك مستقل ، وفي مجال نشاط  
مختلف ... فالقضاء على أحدهما لمصلحة الآخر تعطيل  
لإحدى ملسكات البشرية ... وتدخل أحدهما لتحق حرية  
الآخر هرقة أيضاً لسير الإنسانية ...

والتعادلية ترى إلى بقاء كل منهما موازناً للآخر ،  
كما يتوازن كوكبان يدور كل منهما حول نفسه ... ثم  
يسيران بعد ذلك معاً إلى الأمام في عين المجرى ...

وقد سبق أن بينت في كتابي « تحت شمس الفكر »  
في فصل بعنوان « منطلق الإيمان » كيف أن العقل  
والإيمان يمكن أن يعيشاً جنباً إلى جنب في كيان  
الإنسان ، دون أن يطنس أحدهما على الآخر ، أو يؤثر  
في أسلوبه وهدفه ...

وبأشعة العقل ومنطقه ، وحرارة القلب وإيمانه ،  
يستطيع الأدمى أن يمجا حياته الكاملة ...

ولعل أزمة الحضارة الحديثة علتها — كما قلت

أيضاً - أنها لم تحقق للإنسان حياته الكاملة ؛ فهو على الرغم من تألق العقل البشري على نحو لم يسبق له نظير ، يشعر بنقص ، وهذا النقص يبعث فيه القلق ، أو على الأقل ، بعض هذا القلق الذي أصبح من سمات هذا العصر الذي نعيش فيه ...

**والآن** فلنلخص لك التعادلية في هذه المبادئ.

الخطة :

أولاً - أنت تعادلي إذا كنت تعتقد : أن الوجود هو التعادل مع الغير ... الأرض لا تكون بغير تعادها مع الشمس ... لا يوجد مخلوق وحده ... كل كائن ، وكل صفة ، وكل حالة ، وكل وضع لا يوجد في عالم المحسوسات ولا في عالم المعاني إلا بالنسبة إلى غيره ... لا بد من غيرك لتكون أنت ... التعادلية إذن تقوم على الغيرية ... والوجود التعادلي يتلخص في هذه العبارة :

« بغير الغير لا يوجد وجود ، ... »

ثانياً - أنت تعادلي إذا كنت تعتقد أن الفكر يجب أن يكون معادلاً للعمل ، وأن مسئولية الفكر هي في حرية واستقلاله تجاه العمل ، ... »

ومذا يخالف لرأى المذاهب التي ترى اندماج الفكر  
في العمل أو خضوعه له ... فالتعادلية متفقة مع الوجودية  
ومع الواقعية الاشتراكية وغيرها من المذاهب التي ترتكز  
على مسئولية الفكر في التوجيه والتطوير ... ولكنها تختلف  
عنها في أنها تدعو إلى استقلال الفكر عن العمل ، ولا تبيح  
لرجل الفكر أن يتندج في العمل ، كما هو الحال في وجودية  
سارتر ، الذي عمل بنفسه مع زملاء له على تكوين حزب  
سياسي ، كما عمل على موازنة أحزاب اليمين تارة وأحزاب  
اليسار تارة أخرى ... كذلك لا تبيح التعادلية لرجل الفكر  
أن يخضع الفكر للعمل ، كما هو الحال في البلاد ذات النظم  
التي لا تسمح للفكر أن يتخذ رأياً أو موقفاً لا يسير الاتجاه  
المرسوم ...

أنت إذن تعادلي إذا كانت مسئوليتك هي أن تجعل من  
الفكر قوة ، حرة بأداتها المستقلة وأسلوبها الخاص لتعادل  
وتوازن قوة العمل ، بأداته وأسلوبه ...

ثالثاً - أنت تعادلي إذا اعتقدت أن الخير والشر  
وضمان للإنسان ... وأن الخير يجب أن يعادل ويوازن  
الشر، وأن جزاء الشر ليس الاقتصار من حرية الشخص ...  
لأنه لاموازنة بين الشر والحرية ، إذ لعلاقة البتة بينهما ...  
إنما العلاقة هي بين الشر والخير ... فالجزاء إذن هو عمل  
خير يوازن ويعادل ما ارتكب من شر ... كما أن الضعف  
والتقص حالات لها كذلك ما يقابلها من قوى معوضة  
معادلة ، على الإنسان أن يستخرجها من مكانها  
في نفسه ...

رابعاً - أنت تعادلي إذا كنت تعتقد أن العقل  
بمنطقه وشكك يجب أن يعادل ويوازن القلب بشعوره  
وإيمانه : أي أن الشك يمكن أن يعيش مستقلاً موازناً  
للإيمان ...

خامساً - أنت تعادلي إذا كنت ترى أن الأثر الأدبي  
أو الفني يجب أن يقوم على التعادل والتوازن بين قوة

التعبير وقوة التفسير ...

\* \* \*

قد تسألني : ما هو مستقبل الفكر المعادل للعمل ؟ ...  
فأقول لك متفائلاً : إنى أرى المستقبل كله له ... لأن هذا  
هو الوضع الطبيعي ، وإذا كنا إلى هذا العصر نجد الفكر  
تابعاً للعمل : أى السلطان ، فإن ذلك لن يكون فى الغد ...  
فإنى أتنبأ للفكر فى العصور القادمة بقوة عظيمة تتبع من  
ذاته ، كما تتبع الطاقة من ضوء الشمس ، فتتحرك بقوتها  
المركزة الذاتية مسائر البشر نحو الأهداف العليا التى يرسمها  
الفكر بعيداً عن أغراض السلطان ، ويكون له من النفوذ  
والإيحاء ما يرد سلطة العمل إلى الصواب إذا انحرقت وجادت ،  
دون أن يفقد صفته الخاصة فينقلب عملاً ، أو يتخذ أسلوب  
رجال السياسة فيصبح جدلاً ...

\* \* \*

قد تسألني كذلك : ما هو مستقبل التعادلية فى علاج

الإنسان ؟ ... فأقول لك متفائلاً أيضاً :

إن التعادلية باعتبارها مذهب يقاوم الضعف والعجز والنقص والقبیح ، بإيمانها بوجود القوى المعوضة الموازنة : أى المعادلة ، وإعلانها طريقة واضحة للمقاومة ، وهى نهوض الإنسان — سواء كان فرداً أو شعباً — للكشف عن القوى المعوضة المعادلة وإظهارها وتنميتها ... هذا المذهب يلغى أثر الضعف والعجز ، عن طريق استخراج المعوض والمعادل ... كل شعب أو مجتمع أو رجل أو امرأة أو فنان أو عامل أو أديب الخ ... يجب أن يسأل نفسه هذا السؤال ، إذا أحس من نفسه عجزاً طبيعياً أو نقصاً خطيراً : ما دمتُ عاجزاً ضعيفاً فى هذه الناحية ، فلا بد أنى قوى قادر فى ناحية أخرى ... ما هى ؟ ...

لا يوجد إنسان ضعيف ... ولكن يوجد إنسان يجهل فى نفسه موطن القوة المعوضة ...

قم وقاوم ... وابحث عنها وكافح لإظهارها وتنميتها ،

لتعادل بها عجزك وضعفك ... يوم تنهض الإنسانية كلها  
تفعل ذلك ... كم من مناجم القدرة ستنفجر لتعوض عن  
مأساة المعجز البشري .

**أما بعد ...** فأظن أني قد أوجزت لك موقفي في خطوطه الرئيسية ... فإذا أردت تفصيلاً فعليك أن تستخلصه بنفسك . وهذا ميسور لك إذا أعدت قراءة كتي على هذا الضوء ... ولا أقصد بالطبع كل ما كتبت ... فما من كاتب يستطيع أن يتقيد في كل أعماله بعين الفكرة ... وإلا كان مجنوناً ... فالجنون أحياناً هو الجود على فكرة معينة ... ولكنني أقصد الكتب التي تحمل رسالة الكاتب ... وهي التي يجب أن تقرأ قراءة مستكشفة ... وهذا أمر لا يستطيعه كل القراء ... ومن هنا كانت القراءة في بعض الأحيان فناً ... بل أداء إيجابياً معادلاً للكتابة لأن القارئ المكتشف يخلق شيئاً ... شيئاً موجوداً من قبل ، ولكنه مجهول ... وما قيمة الموجود إن لم يكن معلوماً ؟؟ ...

شأن القارئ المكتشف للمعانى والاتجاهات شأن الرسالة.

المكتشف للجزر والقارات ؛ إنها مخلوقة قبل رحلته ،  
ولكنه هو الذى أخرجها من ضباب يشبه العدم إلى نور  
أوجدتها في نظر الناس ... لذلك كانت نعمة الكتب  
قرآنها ، وآفة الكتب قراءها أيضاً ... فن القراء من  
يشبه البحار الجاهل الذى يسير بغير بوصلة ولا يعرف شماله  
من جنوبه ، ولا يحسن إلا أن ينشر شراعه وينطلق في بحره  
على غير هدى ، فإذا ضل لم يتهم جهله ، إنما اتهم البحر وخالوه  
من الجزر والشواطئ . ... وقد لا يضل ، ولكنه يجول  
جولة خاطفة ثم يعود سريعاً ليقول : إنه تنزهة لا بأس  
بها ، ولكنه لم يصادف ما يسترعى الالتفات ... على أن  
هناك نوعاً من القراء أعجب من ذلك ... هو من يقرأ  
الكتاب ، لا يستخرج منه رأى المؤلف ؛ بل يطبق عليه  
رأيه هو وما يعتقده هو من نظريات في الفكر والأدب  
والفن فهو يطالع كتابك ليعرف هل أنت من رأيه ؟ ...  
فهو لا يريد أن يعرف عنك شيئاً ، ولكنه يطالبك

أنت بشيء : هو أن تكون قد كتبت كتابك طبقاً لما يريد  
هو من موضوعات لم يخطر ببالك أن تتناولها ... هذا القارىء  
هو عكس المكتشف ... فهو كالبحار الذى يخرج إلى البحر  
لا ليكتشف ما فيه من جزر ؛ بل ليقول بعد جولته  
السريعة : كان يجب على البحر أن يبرز لنا على مقربة من  
جزيرة صالحة للزراعة ، فيها مناجم حديد وآبار بتروك .  
كل هذه الأنواع من الملاحين لا يمكن أن يكتشفوا  
شيئاً — لأنهم لا يعرفون ولا يريدون ولا يحاولون ...  
ولذلك يخرجون كلهم إلى البحار ويعودون منها ، ولا يقولون  
لك شيئاً نافعاً مثمراً عما شاهدوا ...  
هذا عدا صنف آخر من القراء يزيقون أفكارك ،  
عندما يستمعون عليهم فهمها على حقيقتها ، أو يعبثون بها  
فتبدو شيئاً غثاً خفياً ، هو ولا شك من صنعهم م ... لا من  
صنعك أنت .

وخير من هؤلاء جميعاً القارىء المتواضع الذى يحاول

بكل أمانة وطيب إرادة وحسن طوية أن يتابع أفكارك بصبر  
وعناية ... وهذا يكفي ... سواء نجح أو أخفق في فهم  
ما تريد ، ومثل هذا القارىء طاعة لا يتحدلق ولا يتظاهر  
بعدم ولا يلقى الكلام على عواهنه ... إنما نعرفه جميعاً من  
اختيار الفاظه واتزان أحكامه .

لجملة القول إذن أن القارىء المكتشف ليس بالقارىء  
العادى ؛ بل هو قارىء نادر ... لأنه وهب من صفات الصبر  
والدقة وطول البال والباع وحسن التلق وقلة الادعاء وحب  
المؤلف — وأقول حب المؤلف لأنك لن تستطيع أن تتجشم  
جهداً في اكتشاف شيء لا تحبه — هذا القارىء وهب من  
هذه الصفات كلها قدرأ يؤهله لأن يكتشف : أى يعطيك  
أكثر مما يأخذ منك ...

فن يكتشف جزيرة — ولو صغيرة — يمطيها من القيمة  
فى نظر الزمن والوجود والتاريخ أكثر مما يأخذ منها ...  
هذا القارىء هو خالق المؤلف ...

نعم ... إنه هو الذى خلق « أرضنا » و « أبا العلاء »  
و « الحيام » و « شيكسبير » .

هذا القارىء الخلاق الذى عندما يخطر له أن يقرأ  
يكتب ويدون اكتشافه فإنهم يسمونه « الناقد » ، أو على  
الأصح الناقد المفسر ... هو : « خرسستوف كوليب » الفن  
أو الأدب ... لولاه ما استطاعت الأجيال أن تعرف  
من مخلوقات الفكر البشرى هذه المعالم والممالك ...

القارىء المفسر هو أيضاً من هذا الطراز ...  
واقدم كنت أنت يا قارئ المجهول دافعاً إلى البحث عن  
حقيقتى ، بما أنتهت لى من هذه الإجابة التى أرجو أن يكون  
فيها بعض الجدوى .

إنك لم تذكر اسمك ... مامن أحد يعرفك ... ولكن  
قد يكون لك فضل فى تعريفى أنا إلى الناس ...  
تحياتى إليك وشكراً ...

## جوهر التعادلية

[ لا ينبغي أن تؤخذ كلمة «التعادل» هنا بالمعنى اللغوي الذي يفيد «التساوى» ... ولا بالمعنى الذي يعنى «الاعتدال» أو التوسط في الأمور .

بل إن معنى «التعادل» هنا هو «التقابل» ، و «القوة المعادلة» هنا معناها «القوة المقابلة» و المناهضة .

فإذا لم يفهم معنى الكلمة على هذا الوضع ، فإن «التعادلية» تفقد حقيقة معناها ومرماها . إن «التعادلية» في هذا الكتاب هي الحركة المقابلة والمناهضة لحركة أخرى ] .

الواحد الصحيح = صفر .

الحياة الإيجابية تبدأ من العدد « اثنين » . إذ بوجود

شيتين توجد العلاقة بينهما : أى الحركة والحياة .

كل حركة يجب أن تقابلها وتمادلها ( تناهضها ) حركة .

كل قوة يجب أن تقابلها وتمادلها قوة .

الله وحده هو الواحد الأحد الكامل بذاته . ومع ذلك

أوجد بإرادته تعالى قوة أخرى مقابلة : هى قوة الشيطان ،

كى تبدأ الحياة البشرية فى التلون والتحرك .

وخلق الله آدم واحداً صحيحاً . فكان وجوده سلبياً .

فصنع منه اثنين ... ووجد آدم وحواء .

وعندئذ اتخذ الوجود حركته الإيجابية .

والشمس بمفردها قوة سلبية . ولكننا انقسمت إلى

كواكب أخرى تتعادل وتتوازن فى حركة مناهضة لتقاوم

وتبقى ... فبدأت فى السكون الحركة الإيجابية .

قوة السلطان المطلق حركة سلبية ... ولا بد من حركة  
مقابلة معادلة : هي قوة المحكوم ، لتبدأ في المجتمع حياة  
إيجابية .

وهكذا ... وهكذا ...

تلك هي التعادلية في جوهرها .

خلاصتها أن الواحد الصحيح وجود سلبى ...

هو خطوة بعد العدم ... هو من حيث الحركة الإيجابية

صفر ... لأنه لا يقاوم غيره ولا يجد غيراً يقاومه ...

وبانعدام المقاومة تقف الحركة ...

الحياة الحقيقية لا تبدأ إذن إلا من العدد اثنين ، ...

والكى يظل العدد اثنين ، موجوداً دائماً ، يجب أن

يحافظ كل واحد فيه على قوته الخاصة ... فإذا تضخم

واحد على حساب واحد ، أو ابتلعت قوة أحدهما قوة

الأخر ، رجع العدد ٢ إلى واحد صحيح : أى إلى الوجود

السلبى ...

التعادلية إذن تفسر الحياة الإيجابية بأنها ضرورة  
وجود جملة قوى تتقابل وتتوازن مناهضة بعضها بعضاً  
في الكون والمجتمع ...

وأن العدم يبدأ بابتلاع جميع القوى في واحد صحيح ...  
الواحد الصحيح هو السكون ...  
والأعداد المختلفة المقابلة هي الحركة المعادلة المناهضة ...  
هي الحياة ... تلك هي التعادلية ...

هي فلسفة الحركة المقابلة المعادلة : أى الحياة ...  
احتفظ بقوتك الخاصة مستقلة حرة ، لتعادل بها وتقابل  
القوى الأخرى التي تريد أن تبتلعك ... بذلك تقاوم  
وتتحرك وتحمي ...

التعادلية هي مقاومة الابتلاع ...  
إذا كان لديك ضعف ونقص ، فأبحث جيداً في أنحاء  
نفسك ، فستجد فيها قوة خفية معادلة وزيادة كامنة  
مقابلة ...

عادل وجودك كما فعلت أرضك إزاء الشمس ا ...  
وازن نفسك تجاه القوى المواجهة ا ... وإلا ابتلعتك  
في جوفها ، وأصبحت لها وقوداً وطعاماً ... وصرت  
عدما ا ...

هكذا تقول التعادلية ا ...

كل قوة تتضخم تريد ابتلاع غيرها ... ففي المجال  
السياسي والاجتماعي مثلاً الرأسمالية إرادت ابتلاع العمل ...  
الاستعمار يزيد ابتلاع الشعوب ... الطبقة القوية تريد  
ابتلاع الأمة كلها ... الغرب يريد ابتلاع الشرق ... إلخ ...  
التعادلية هي فلسفة القوة المقابلة والحركة المقاومة  
للإبتلاعية ...



# الإسلام والتعاوية<sup>(\*)</sup>

---

(\*) هذه الفصول عن « الإسلام » ، التي تنشر هنا للمرة الأولى ، لم تشملها كلية الدكتور زكي نجيب محمود التي كتبها ونشرها في مجلة الهلال في أول فبراير عام ١٩٦٨ .



**وأخيراً . . .** لما دمننا قد حاولنا أن نجيب عن السؤال

الذي طرحه دائماً على أنفسنا وهو عدم وجود فلسفة لنا

الآن ، وأن تفكيرنا وفلسفتنا هي ما نستجلبه جاهزاً من

الفلسفات الأوربية ، فإن هذه المحاولة قد انتهت بي إلى ما كنت

أشرت إليه في عام ١٩٣٧ في كتابي «عصفور من الشرق»

من أن حياتنا العقلية تعيش في ظلمين .

وفي عام ١٩٥٥ كتبت «التعادلية» لأوضح أن كل شيء

في الكون يقوم على «التعادلية» .

ثم وصلت إلى ١٩٨٢ ، فوجدت أن ديني ، وهو

الإسلام ، وهو جزء من النظام الكوني ، قائم على التعادلية ،

ولذلك أضفت هذا القسم الأخير الخاص بالإسلام من وجهة

النظر التعادلية ، ورايت أن ما يمكن جملة أساساً لفلسفة

عربية إسلامية هو ما نشأ من عقيدتنا التي تقول الإنسان إن

عليه أن يعيش في عالمين : أى أن « يعيش في الدنيا كأنه يعيش أبداً ، ويعيش للأخرة كأنه يموت غداً » .

وهذا يقتضى من هذه الفلسفة أن تدرس الحياة الدنيا جيداً ، وتحاول أن تعرف ما تستطيع معرفته عن الحياة الأخرة . ولكننا مع الأسف لم نحاول دراسة الحياة الدنيا لتعايش الحياة الأخرى في تعادل مُمتنع ، نخشينا مواجهة قضايا العصر ، فتخلفنا عنه ...

\*\*\*

ونحن اليوم بصدد تقنين الفقه الإسلامى وجعل الشريعة الإسلامية أساساً للتشريع، فن الواجب أن نعرف منشأ هذه الشريعة فى المجتمع الذى ظهرت فيه أول مرة ، والمسار الذى سلكته هذه الأحكام الشرعية من مبدأ العمل بها إلى ما انتهت إليه اليوم ، وهل زالت هذه الأحكام كلها تماماً فى مجتمعنا الحاضر أم بقى منها شيء ... فى القانون المدنى الذى نطبقه اليوم ماذا يتفق مع الشريعة فيه ؟ وماذا

يختلف؟ وفي القانون الجنائي، ماذا أخذ؟ وماذا أهمل؟ كل ذلك لابد فيه من إحصاء دقيق واضح تحت نظرنا حتى يجرى الكلام فيه على أساس العلم اليقيني بالأمانة العلمية التي كان يعرفها ويمارسها السلف الصالح في عصور الإسلام الزاهرة .  
وواجب رجال الدين تعريف الناس بالساع أفق ورعاية صدر نبي الاسلام صلوات الله عليه عندما أخذ بما كان جارياً عليه العمل قبل الاسلام دون أن يتحرج ، مثل أخذه بعقوبة قطع يد السارق التي كان معمولاً بها في الجاهلية وجاء القرآن فأقرتها ، وكذلك عقوبة الرجم في الزنا التي كانت في التوراة ، وهذا يدل على أنه لا يوجد في الاسلام موانع ترفض الأخذ بما لم يكن قد نشأ في الاسلام وحده ، وهو ما قاله ﷺ « اطلبوا العلم ولو في الصين » .  
فلا حرج إذن من أن يقتبس الاسلام ما ينفع المسلمين ، ولكن رجال الدين في عصرنا الحاضر أصبحوا لا يجرؤون على ما كان يفعله النبي نفسه ، والذي لم يحرم ما ينفع المسلمين

فمجرد أنه لم يأت به الإسلام ، بل لا يتنفسك بما يأتي به هو نفسه  
إذا كان فيه ضرر ، كما حدث في مشورته لأصحابه في قصة  
النخيل ، فلما رأى رأى الناس أتى بالنتج قال لهم : « أتم أدرى  
بشئون دنياكم ، . هذا ما ينبغي دائماً لرجال الدين اليوم  
الاقتداء به فيما ينفع الناس بصرف النظر عما إذا كان هذا  
مطابقاً أو غير مطابق لما كان يجري عليه العمل في العصور  
السابقة . أي أن يكون الأساس في ممارسة الحياة على النفع  
الذي يعود على الناس وليس على النصوص القديمة وحدها .  
ولهذا عندما نقول إن الفلسفة الإسلامية عندنا تستقر  
في بنیان أقالمة المفكرين من المسلمين ، لأن كل فلسفة لا يمكن  
أن تقام إلا ككل بنیان : حجر فوق حجر ، ومجهودات  
فوق مجهودات... فإن هذا البناء لهذه الفلسفة الإسلامية لا بد  
أن يقوم على أساس الحياة في عالمين : الدنيا والآخرة .  
ويجب أن تكون قضايا الدنيا قد تعمق في دراستها رجال  
دين ودنيا ، أي رجال متبحرون في علوم الدنيا إلى جانب

تفقههم في علوم الآخرة ، وفلاسفة متعمقون في شئون  
الآخرة ... وبالتعاقل بين الحياتين تنشأ الفلسفة الإسلامية  
والعربية ...

كل ذلك بالروح الذي تميز به الإسلام: وهو الاعتدال  
بعدم الغلو والتطرف والاسراف؟

# التعاضدية في الإسلام

## التعاضدية والطغيان

فالتعاضدية تقوم على عدم طغيان موجود على موجود .  
سواء في الأرض بين الأجسام ، أو في السماء بين الأجرام .

## تعاضدية الإسلام

والإسلام يقوم على الإيمان بوجود الدنيا ووجود  
الآخرة ، ولكل وجود شأنه المستقل ، فالدنيا وجود يعمل  
فيه الإنسان كأنه يعيش أبداً ، والآخرة وجود يعمل له  
الإنسان كأنه يموت غداً ، ولا طغيان لأحدهما على الآخر  
إلى حد الإفناء والإلغاء .

## الخير والشر

وقد خلق الله تعالى الخير ليعيش مع الشر على أرض هذه الدنيا ، والنور مع الظلام ، لا طغيان لأحدهما على الآخر . فالوجود الكوني كما خلقه الله تعالى جعل له عاقبه هذا القانون الثابت : لا وجود يطفى على وجود . لأن الله لا يطفى ما خلقه ، ولكنه يعدّله ويصلحه ويضيف إليه . حتى الموت ليس في حقيقته إلغاء لوجود ، ولكنه انتقال لموجود من وجود إلى وجود .

## ممارسة التعادلية

ولكن ممارسة التعادلية في الحياة تستلزم وجود المتناقضات ، فالحياة مكونة من عناصر ، ومن العناصر ما يحاول بعضها إفناء البعض ، سواء في الفرد بتعارك قواه

وصراع جرائمه ، أو في المجتمع بتدافع تجمعاته ، ولولا دفع  
الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ، (١) وهذا التدافع  
والتناقض لا ينبغي أن يؤدي كما قدّر له الله إلى الطغيان الذي  
يتم به الفناء التام . . بل هيباً له الضد الذي يحفظ له الوجود  
ولو في صورة جديدة .

---

(١) سورة البقرة آية ٢٥١

## العقل والإيمان

ومن أهم العناصر المتصارعة : العقل والإيمان .

العقل :

جاء فيما ورد عن الله تعالى في حديث قدسي مخاطباً العقل :  
« ... ما خلقت خلقاً أحب إلي منك ، وعزتي وجلالي لا أكملنك  
فيمن أحببت ولا نقصنك فيمن أبغضت » . كما قال الله  
تعالى : « إنما يخشى الله من عباده العلماء ... » (١) . والخشية  
كما فسرها بعض المفسرين ترمز إلى التقدير والإجلال .  
وقال ﷺ عن الفكر والتفكير : « لا عبادة كتفكير »  
ثم : « تفكر ساعة خير من عبادة سنة » .

الإيمان :

والى جانب تمجيد العقل والفكر في الإسلام وجد معه

---

سورة فاطر ، آية ٢٨ .

الإيمان : كما وجدت الدنيا وإلى جانبها الآخرة . ويقع بينهما  
أحياناً مواقف متعارضة ، تستوجب الفصل بينهما بالقول  
إن الإيمان يُستخدم فيما يتصل بالله ، والعقل يستخدم  
فيما يتصل بالبشر . ومن أقوال الرسول ﷺ إنه مر على قوم  
يتفكرون في الله ، فقال : « تفكروا في الخالق ولا تتفكروا  
في الخالق ، إنكم لا تقدرُونَ قدره ، ... ولا يخطئ العقل  
إلا إذا وصل إلى الطغيان وظن أنه يعرف قدر الله بعقله  
وحسب أن في إمكانه أن يسبر غور المحيط بأصبعه . وقد  
جاء عمر بن الخطاب إلى الإيمان لينزع طغيان العقل عندما  
علم بالإسراء : لم يقبل عقله ما حدث .. وكاد أن ينضم  
إلى الذين كذبوا وشنعوا ، وارتد أقوام كانوا قد آمنوا .  
وعلم أبو بكر الصديق بما كان من عمر ، فتصدى له مؤكداً أن  
الإسراء حدث فعلاً ، وقد علم به من النبي نفسه .. ووقع عمر  
لحظة بين ما يرفضه العقل ، وهو من أعظم الناس تقديراً  
للعقل ، وبين ما يقبله الإيمان .. فانتهى إلى الإيمان .. لأن

العقل محدود بمحدود القدرة البشرية . . أما الإيمان فهو متصل  
بالقدرة الإلهية غير المحدودة .

فالإسلام إذن تعادلية : لا يطفى فيه العقل فيحجب  
نور الإيمان ، ولا يطفى الإيمان فيشل حركة العقل . والعقل سلم  
يصعد عليه بالمنطق البشرى ، والإيمان شعاع يضيء بتغير  
دليل أرضى .

### الدين والدنيا

جمع الإسلام بين الدين والدنيا ، أى بين شئون الروح  
ودواعى الجسد ، أى أن الاتصال بالله والصلاة والصيام  
والاعتكاف ونحو ذلك من شئون الروح ، لا ينفى الاتصال  
بالمرأة والمأكل والمشرب ونحو ذلك من ضرورات الجسد .  
وهذا الجمع هو ما يميز طبيعة الإنسان الذى يتغذى روحياً  
بغذاء نورانى ، وجسدياً بغذاء مادى ، ولهذا كانت فطرة  
الإنسان هى جوهر الإسلام فى توازنه وتعادلته .

فاليهودية طغت فيها المادية إلى حد أن كان الهيكل  
للمقدس في عهدنا الأخيرة مكان تجارة ، فكان لا بد من  
وجود فعل قوى تمثل في الروحية المسيحية ، ولهذا بعث الله من  
قده الروح القدس ؛ أي المولود بغير أب من البشر ، ولكن  
احتمال الروح العلوى لم يكن ممكناً للبشر إلا في حدود  
المثل العليا ، فكان أن أرسل الله تعالى الرسول من البشر  
ليقيم التوازن بين الروحية والمادية ، تبعاً للطاقة البشرية  
وطبقاً لطبيعة الخلق البشرى من روح ومادة .  
وفي هذا التوازن أى تعادلية البشرية ، ختام التسكوير في  
الإنسان ...

### الاعتدال وعدم الإسراف

قال تعالى : « يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد  
وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين ، (١) » .

(١) سورة الأعراف ، آية ٣١

وقال تعالى : دها أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات  
ما أحل الله لكم ولا تعتدوا ... ، (١) فقد اتفق جماعة من  
المتطرفين على أن لا يأكلوا اللحم ولا يقربوا النساء  
ولا الطيب ، ويلبسوا المسوح ويرفضوا الدنيا ، فقال  
رسول الله : « ما بال قوم قالوا كذا وكذا ، لكنني أصلي وأنام  
وأصوم وأفطر ، وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتي  
فليس مني » .

وقال رسول الله ﷺ : « حبيب إلى من دنياي ثلاث :  
النساء والطيب وجمعت قرعة عيني في الصلاة » . ومعنى ذلك  
عندي : هو ما يرمز لخبر ما في الدنيا : النساء رمز المادة ،  
والطيب رمز الجمال في الرائحة والفن ، والصلاة رمز  
الروح والقرب من الله . وكل ذلك في اعتدال وبعد  
عن الغلو والإسراف .

---

(١) سورة المائدة ، آية ٥

## عدم الغلو في الدين

حتى في الدين قال الله تعالى في سورة المائدة : « قل يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم غير الحق » (١) .

كما جاء في الأحاديث الشريفة عن الإسلام :  
« إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق ... » أي إن الله تعالى يأمر في الإسلام بعدم الغلو والإسراف .  
أي بالاعتدال والتعادل هذا هو الأساس الذي تقوم عليه التعادلية ، لأن عدم الاعتدال معناه طغيان موجود على موجود ، والله يحافظ على وجود كل ما أوجده .

ومن صور هذا الغلو أن سارع بعض رجال الدين إلى تحريم شهادات الاستثمار وهي أشبه بما كان يحدث أيام السيدة خديجة رضي الله عنها ، عندما كانت تسكف النبي في شبابه باستثمار مالها في التجارة ، واليوم تقوم بمثل هذه المهمة

---

(١) سورة المائدة آية ٧٧ .

المصارف بأسلوب يختلف بعض الشيء عن العرف  
الاستثمارى فى زمن الرسول ... وهذه قضية كان من  
الواجب اليوم بحثها موضوعياً وبروح بعيدة عن التطرف  
والغلو .

قيل إن رأى المتطرف خشى أن يكون هذا الاستثمار  
مثل الربا ... وقال رأى الأخر إن المقارنة بعيدة ، لأن الربا  
ليس فيه تجارة ، وإعمافيه رجل فقير واقع فى نكبة ، فأراد أن  
يخرج من هذه النكبة بمال يقترضه من رجل غنى ، فأشترط  
صاحب المال على المدين المحتاج أن يرد القرض ويزيد عليه  
مبلغاً آخر . فالربا هو استغلال غنى قوى لنكبة فقير  
ضعيف ، وهذا عكس الاستثمار الخالى من الضعيف  
والقوى ، بل إن الضعيف هنا هو صاحب المال الذى يريد  
تسمية ماله بالتجارة ، والتراضى ، وليس فيه ضغط ولا نكبة  
ولا إنقاذ ... أما احتمال الخسارة ، فهو شأن كل تجارة : فيها  
المكسب وفيها الخسارة . أما الحسل المقترح بإلغاء كلمة

« الفائدة » ووضع كلمة المضاربة ، محلها ، فهو من قبيل  
« التحايل » غير اللائق في دين كالإسلام قائم على الصدق  
والصراحة ... ولا خطر على الإسلام ومستقبله إلا من  
فقيه ماجن يشيع في المسلمين الخوف من الحرام والحلال  
فيقعد المسلم عن التحرك النافع . من ذلك أن غنياً كبيراً  
أودع أمواله الطائلة في مصرف أجنبي فاستغلها المصرف  
في التجارة فربحت الأرباح الكثيرة ؛ فأراد أن يعطى صاحب  
المال نصيبه في الربح فرفض قبضها لأنه لا يأخذ الفوائد .  
لحار المصرف ولم يعرف كيف يتصرف في مال ليس من  
حقه حجزه ، وسأل المصرف عن هذا الأمر المجيب فقيل  
له إن هذا الرجل مسلم ، والإسلام يرفض الفائدة . فتهجروا  
في المصرف ، وقال بعضهم : إذا كان يرفض ربح أمواله من  
التجارة فلماذا لا يقبضها ثم ينفقها في مشروعات تعود بالخير  
على مواطنيه المحتاجين ؟ ولكن هذا الغنى المسلم لم يفهم  
إلا أن هذا حرام كما أفق له المفتى ...

## الرأى الآخر

وفى الآراء جاء فى الإسلام أن الله تعالى وهو العزيز الجبار استمع إلى قول من خالفه وإن لم يأخذ به :  
وإذ قال ربك لللائكة إني جاعل فى الأرض خليفة :  
قالوا أنجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك؟ قال إني أعلم ما لا تعلمون ، (١).  
كذلك علمنا الإسلام أن تكون المجادلة بما هو أحسن ،  
وعند عدم التلاقى فى الرأى يكون : لكم دينكم ولى دينى ، وفى  
هذا أيضاً ضمان لعدم طغيان رأى إلى حد إبادة رأى آخر .

---

(١) سورة البقرة آية ٣٠

## الحق والباطل

وكما خلق الله النور والظلام ، خلق الحق والباطل والصواب والخطأ ، وجعل أداة التمييز بينهما هي مسئولية العقل ؛ فإذا جهز العقل عن الرؤية والتمييز جعل نور الإيمان هو العين المبصرة ، ولكن دون الطغيان المبيد . فقد قدر الخالق بحكمته أن يظل الموجود الذي خلقه موجوداً . فسوف يظل الظلام موجوداً ما وجد النور ، ويبقى الباطل والخطأ ما بقي الحق والصواب .

## النصر والهزيمة

وكما قدر الله النصر في بدر ، قدر الهزيمة في أحد ، ليتمشى كل شيء طبقاً لحركة الحياة ، وتبعاً لقانون الوجود ، والحكمة أخرى هي في عليه ، والله أعلم .

## دين البشر

وعندما أراد الله أن يكون الإسلام ديناً للبشر بما في  
البشر من صفات متناقضة ونزوات مختلفة منها القوة والضعف  
والصحة والمرض ، واللذة والألم ، والانشراح والضييق ،  
والسعادة والشقاء ، بعث رسولاً من البشر تمر به هذه  
المواقف ويعرف هذه المشاعر ؛ فعرف مشاعر الزوج السعيد  
بإخلاص خديجة ، وآلام الزوج الشاك بما شاع من  
حديث الإفك حول عائشة ، كما عرف المرارة من طبايع الناس  
من عدو وصديق إزاء هذه الشائعات . ثم متعة الإيمان  
وانتصاره بدعوته . وعرف الرسول حب الله له ، كما  
تلقى كتابه له يوم دعس وتولى أن جاءه الأحمق .

وبالاختصار فقد لخص بوجوده كل الوجود البشري  
من كل جوانبه وكل مواقفه ، مصداقاً لقول الله له : « قل  
إنما أنا بشر مثلكم ... » (١) .

(١) سورة الكهف آية ١١٠ .

## التعادل والعدل والاعتدال

ويروى عن الإسلام : « بالعدل قامت السموات والأرض »  
تليها إلى أنه لو كان ركن من أركان العالم زائداً على الآخر  
أو ناقصاً عنه لم يكن العالم في هذا الانتظام .  
والعدل والاعتدال والتعادل هي العناصر الثلاثة  
« للتعادلية » ، وضد هذه العناصر الطغيان والظلم والإسراف ،  
وقد ذكرت في القرآن كلمة « الإسراف » كثيراً ، والأمر دائماً  
بالقول « لا تسرفوا » ، لأن الإسراف إخلال بنظام  
السكون ...

## الجمال

قال الله تعالى: «لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم» (١)  
أى فى الاعتدال ، وهو ما يمكن أن نصفه بالتناسق والانسجام  
وهو الجمال : فالصوت الجميل فى التلاوة كان النبى الكريم  
يحب ، وكذلك الرائحة الجميلة فى الطيب ، واللغة الجميلة فى  
القرآن ، وفى بعض الشعر الرفيع . ولا يمكن أن  
يكون الفن الجميل مكروهاً إلا عندما ينحط إلى التعبير  
عن أحمق وأخس وأقبح ما فى الإنسان . وفى  
المرأة قال صلى الله عليه وسلم : «خير النساء المرأة إذا  
نظرت إليها سرتك ...» . وروى أبوهريرة عن رسول  
الله أنه قال : «من كان له شعر فليكرمه ، أى يجعله حسن  
المنظر . فالإسلام لا يجب أن يطفى القبح فيفسد  
حسن التقويم ، ولا أن يطفى الجمال فيؤدى إلى

---

(١) سورة التين آية ٤ .

التخلف ... فالإسراف ، أى الطغيان فى الإسلام يفسد  
انتظام الكون ...

### طغيان الخمر

نزل التحريم النهائى للخمر عندما صدر عن حمزة للنبي  
عليه الصلاة والسلام من القول الجافى المخالف لما يجب من  
احترام النبي وتوقيره ما يدل على أن حمزة قد ذهب عقله  
بالخمر ، فعرف رسول الله أنه ثمل ، أى أن طغيان الخمر قد حجب  
العقل ، فاختل بذلك الاعتدال فى إدراك الإنسان ، وفقد  
تعادله واتزانه .

## طغيان العقل

منذ القرن التاسع عشر والعقل يوالى انتصاراته بالعلم  
الذى نشأ عنه وأبدع مخترعاته واكتشافاته التى أذهلت  
الناس ، وجعلت قدرته تكاد تحجب قدرة الله ، حتى أطلق  
الفيلسوف « نيتشه » صيحته المشهورة : « إن الله قد  
مات » ... وجاء القرن العشرون والعقل فى أوج  
تألقه والعلم قد أخرج الإنسان من جاذبية الأرض ، فقال  
عالم الفيزياء الذى قطع فى أبحاثه عن المادة شوطاً أبعد  
مما وصل إليه « أينشتين » وهو العلامة « ألفريد كاستلر »  
مؤلف « المادة هذا المجهول » صرح بقوله : « إننا كلما  
أوغلنا فى دراسة للمادة أدركنا أننا لم نعرف عنها شيئاً ...  
فهنالك دائماً ، وسوف يكون إلى الأبد ، ما هو مخفى عنا .  
ولما سئل : مخفى بمن ؟ قال : بالله .

## « الله » والعلم

والفظة « الله » على لسان عالم في الفيزياء مخرج له ...  
لأنه يخشى هو وعلمه أن يُسأل بعد ذلك «من هو الله؟» وان  
يستطيع أي علم أو عقل بشري على كوكبنا أو أي كوكب  
آخر مهما تبعد أن يصف « الله ». ولعل خير إجابة هي  
ما وردت في القرآن : « ليس كمثل شيء ». وعجونا مثل  
عجز الكبد مثلاً في داخل جسمنا ، وعجزه إلى الأبد ،  
عن إدراك وصف أي شيء خارج جدران هذا الجسم  
البشري . فخرج جدران الكون لا يمكن لمخلوق داخله  
أن يرى خالقه . . فآله خارج حدود العقل البشري .

## المجهول

النور الإلهي وحده هو الذي قد وصلنا بهذا المجهول .  
ولذلك فإن من اعتمد على العقل وحده في الاتصال بالله لن  
يراه . لأننا لا نرى الكوكب البعيد إلا من نوره ، وليس  
بمعادلات العقل ولا تلسكوباته ، فأقواها لا يرىنا غير السطح  
الأجرد . أما النور الإلهي فهو الذي قد يرىنا شيئاً آخر  
يوحي إلينا بوجوده لا يعرفه غير القلب .

وللوصول إلى المعرفة الكاملة لا ينبغي أن يطنى العقل  
على القلب فلا يلتفت بنوره ، ولا أن يطنى القلب على العقل  
فينصر تفكيره المنتج ، والإسلام مارس هذه التعادلة .

## الرحمن

من القوى المدمرة للإنسان الغضب .. وطغيان الغضب  
يمكن أن يؤدي إلى اختلال التوازن العقلي والعاطفي للفرد  
والمجتمع ، وهدم تعادلية الوجود .. وعلاج الطغيان للغضب  
في الرحمة .. ولذلك جعل الله الرحمة من أبرز صفاته .. فبدأ  
آياته باسم الله الرحمن الرحيم ليذكر الإنسان دائماً بالرحمة  
إذا اقترب منه الغضب وأندر بالطغيان . فالإنسان مخلوق  
ضعيف، ولا يقوى دائماً على الصمود في مواجهة غريزة عنيفة  
كالغضب والظلم والعدوان ، إلا أن يتسلح بفضيلة الرحمة  
والعدل .

وقد ورد في الحديث القدسي : « إن رحمتي سبقت

غضبي » .

## العسر واليسر

جاء فيما ورد عن النبي الكريم أنه كان يصلي أحياناً فيأتي  
خفدته الصغار فيمتطون ظهره وهو راكع . فيطيل هو في  
ركوعه لتطول متعة أولئك الصغار الأبرياء ، ولم يقل أحد  
كيف يفعل النبي ذلك ، وهو في صلاته في حضرة الله تعالى ؟  
أليس في ذلك ما يمس واجب التبجيل والتوقير للخالق ا وهم  
لا يعلمون أن الله في علاه وعظمته ليس في حاجة إلى تبجيل  
وتقدير إذا كان فيما حدث متعة بريئة لأطفال أبرياء ...  
وكذلك ما أورده الترمذي من أن عمرو بن العاص دخل ذات  
يوم المسجد وصلى وهو جنب ، فذهب بعض الناس إلى النبي  
الكريم وأخبروه بذلك ، فسأله النبي ، فقال عمرو لرسول  
الله : إن اليوم كان شديد البرد وما كان يحتمل الاغتسال  
في ذلك البرد . فابتسم النبي وتركه وانصرف .

وفي الإسلام ، الضرورات تبيح المحظورات ، . . .

الأعمال بالنيات . فإذا اتبعت نية السوء والسكسل والتهاون  
في الدين ، فإن الدين يتساح ، لأنه «يسر لا عسر» . وفي  
الإسلام تعادلية : فلا طغيان للعسر على اليسر .

### حقي في الشعائر

- فالغلو والإسراف في شعائر الدين ليس مما يحبذ الإسلام .
- فشعائره الموصى باتباعها قد روعى فيها الاعتدال .
- والتعادلية في الدنيا والدين هي اعتدال وعدل وتعادل .
- فلا إسراف ولا طغيان .

## إن الإنسان ليطغى

قال تعالى : « إن الإنسان ليطغى . أن رآه استغنى » (١)  
واستغناء الإنسان يحدث عندما يتألق القوة في صورة مال  
وصحة وعلم . وتاريخ الإنسان يدل على أنه كلما ظهر  
بالقوة ، ولو في عنصر من عناصرها ، ضعف اهتمامه بالدين  
والخالق . فالإنسان البدائي في ضعفه وعجزه عن مواجهة  
قوى الطبيعة ، وخوفه على نفسه من هذه القوى ، وعدم فهمه  
لها ، أخذ يبحث عن قوة أخرى تحميه ؛ فظهر السكاهن  
الذي أفهمه أن القوة التي تهدده وتحميه من الخوف وتمنحه  
ما يريد هي قوة الأرواح الشريرة والخسيرة ، وبدأ الدين  
الأولى بكنهته وقرابينه ، إلى أن استولى على قياد الناس

---

(١) سورة اقرأ آية: ٦، ٧.

وطغى ، فثار عليه الناس ، ثم ارتقى مفهوم الإنسان فاكشف  
القوة الحقيقية في الله ورسله وكتبه السماوية . إلى أن بلغ من  
رقى فهمه وعقله أن اكتشف قوة أخرى غير سماوية هي :  
العلم . وكان الذى كشف له عنها هو العقل الذى خلقه الله  
وقال له : « اقرأ باسم ربك الذى خلق » . خلق الإنسان من  
علق . اقرأ وربك الأكرم . الذى علم بالقلم . علم الإنسان  
ما لم يعلم . كلا إن الإنسان ليطغى . أن رآه استغنى .  
واستغنى الإنسان بالعلم عن الله عندما رأى من العلم  
معجزاته ، فقال : « إن الله قد مات » . ونسيت  
كلية الله في قرآنه :  
« وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » (١) .

---

(١) سورة الإسراء آية ٨٥ .

## العلم القليل

ولكن طغيان العلم لم يستمر طويلاً . فقد قالت المعرفة  
الروحانية في مواجهة العلم المادى : « القليل من العلم يورث  
الإلحاد ، والكثير منه يورث الإيمان » ، وقد أخذ العلم يرقى  
ويتبحر إلى أن جاء عالم معاصر وقال : إنه كلما توغلنا فى علمنا  
البشرى سوف يظل شئنا محجوباً عنا . فلما سئل عما يحجبه  
عنا ، قال : « الله » ...

## « العمل عبادة »

وقد وضع الإسلام عبادة الله في المنزلة العليا . ومع ذلك  
لم يجعل هذه المنزلة تطفئ على منزلة العمل ، فقد مر يوماً  
رسول الله (وقيل عمر) برجل ناسك انقطع لعبادة الله لا يعمل  
شيئاً غير العبادة ، فسأله عن يطعمه ، فأجاب أن أخاه هو  
الذي يعمل ويطعمه ، أما هو فليس له عمل . فقال له : أخوك  
الذي يعمل ويطعمك ! ... أخوك أعبد منك ...

## الأتقان

كذلك قال النبي ﷺ : « إن الله يحب إذا عمل أحدكم  
عملاً أن يتقنه » . ففي الحضارة الإسلامية كل شيء في  
الوجود يؤدي عمله بإتقان إنما يحقق الغاية من وجوده .

## الحرب والسلام

في الإسلام لم تكن الحرب للعدوان ، بل كانت جهاداً  
في سبيل الله ، أي في سبيل السمو الروحي والغاية العليا .  
أما السلام فكان لغاية مشرقة ، بغلق باب عداة عقيم ، حتى  
لو تكلف ثمناً . فقد جاء في صلح الحديبية أن النبي ﷺ أملى  
كتاب الصلح على علي بن أبي طالب قائلاً : « أكتب : هذا  
ما صالح عليه محمد رسول الله ، فقال مشركو قريش : لو كنا  
نعتقد أنك رسول الله ما قاتلناك ، ولكن أكتب : هذا  
ما صالح عليه محمد بن عبد الله ، فقال الرسول للكاتب « أكتب  
ما يريدون » . وتم الاتفاق على أن يكون بينه وبينهم صلح  
عشرة أعوام يتداخل فيها الناس ويأمن بعضهم بعضاً ،  
وعلى أن من جاء من الكفار إلى المسلمين مسلماً مُردّاً إلى  
الكفار ، ومن جاء من المسلمين إلى الكفار مرتدّاً لم يردوه

إلى المسلمين . فمعظم ذلك على المسلمين ، فأخبرهم رسول الله  
أن الله سيجعل له فرجاً ومخرجاً . ونزل القرآن بالفتح . . .  
فقال عمر بن الخطاب : يا رسول الله ، أو فتح هو ؟ قال :  
« نعم » . . . فطابت نفسه .

### التجارة والصناعة

وصدقت فطنة الرسول بأن الصلح فتح لأبواب مشرق  
فنمت في الإسلام التجارة والصناعة .  
كما ورد في القرآن والأحاديث ما يدعو إلى اتخاذ الصنائع  
والأسباب . ففي الحديث الشريف عن صاحب الحرفة :  
« إن الله يحب المؤمن المحترف... ويبغض السائل الملحف... »  
ومن الأنبياء من كان يأكل من عمل يده كداود عليه السلام .

## الحضارة

والحضارة الإسلامية متحركة وليست جامدة ، وهي تشجع لذلك الأخذ بكل جديد مفيد . فلا تدع الجديد المفيد يفوتها بينما هي قاعدة في زمن قديم . ولا تأخذ بغريب غير مفيد لها فتفسد شخصيتها ويحتل كيانها . فلا طغيان ، بل إضافة وتكامل . وخير مثال للإضافة المفيدة ماورد في القرآن من الفاظ هي في الأصل أعجمية ، لكن استعملتها العرب وعربتها ، فهي عربية بهذا الوجه . هذا إلى ماورد في الحديث الشريف : « اطلبوا العلم ولو في الصين » ، وما حدث في عصور النهضة الإسلامية من حركات الترجمة والاطلاع الواسع في علوم العصر ومعارفه ، مما جعل الاسلام يسهم في الانتقال بشعوب أخرى ،

ومنها شعوب أوروبا في القرون الوسطى ، من الظلام  
إلى النور .

كانت الحضارة الاسلامية تدخل من أسباب الدفاع  
ما يلزمها ، فأدخلت «الخندق» الفارسي و «اللأمة»  
الرومية ونحو ذلك . فجاء كل هذا مصداقاً للقول «إن  
الاسلام صالح لكل زمان ومكان» . لأنه يستطيع أن  
يتحرك دائماً في الزمان والمكان ، ولا زال حتى اليوم يتحرك  
إلى الأمام في الزمان والمكان إذا لم يقف في وجه حركته  
بعض الجهلة الجامدين أو بعض الناقلين المقلدين . من ذلك  
ما شاع عندنا اليوم من يتلقى على يد المستشرقين الأجانب  
العلوم الإسلامية وما يتصل بها ويتألون درجة الدكتوراه  
ثم يحرصون على أن يسبق أسمائهم هذا اللقب فيقال عنهم :  
الدكتور الشيخ فلان ... في حين أن رجال الدين المسيحيين  
من تعمقوا في الدراسات المسيحية وهم كرادلة في الفاتيكان

لا يضعون لقب «دكتور» إلى جانب اللقب الديني ،  
ونحن الذين كان لدينا اللقب العلمي المعادل للدكتوراه  
وهي شهادة «العالمية» من الأزهري الشريف تركناها للشرف  
بما ليس ثابتاً في أرضنا . وفي تراثنا البعيد ، وعندما كان  
لدينا خيرة الأئمة والشراح من علماء الدين العظام كنا نسميهم  
«الفقهاء» لأن التفقه في علوم الدين والفقهاء هو الذي أبقى  
للتفكير الإسلامي حياته ... ولقد كتبت مرة أقترح أن  
يكون اللقب العلمي الأسمى لرجل الدين عندنا هو : «الفقيه»  
بدلاً من الدكتور ليتذكر دائماً تاريخنا المجيد وهزنا المديد  
في الفكر الإسلامي ...

## التكافل الاجتماعي

قال رسول الله عليه الصلاة والسلام : « ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه » . . . والوصاية بالجار مأمور بها مندوب إليها : مسلماً كان أو كافراً . وهو الصحيح . ويكمل ذلك شرط الزكاة في الإسلام . ولو نظمت الزكاة تنظيمياً يتفق مع عصر العلم والآلات الحاسبة ونحو ذلك لاستغنى المجتمع ، ليس الإسلامى وحده ، بل العالمى أيضاً ، عن النظم الشيوعية . مع الاحتفاظ بالحرية في العقائد ، وعدم الطغيان فيها .

## حرية الرأي

في موقعة بدر اختار النبي محمد مكاناً للمعركة وقال لجيشه :  
« تنزل ما هنا » ، فقال له أحد أصحابه : « يا رسول الله ، أرايت  
هذا المكان ، أمزلاً أمزلاً لك الله ، ليس لنا أن نتقدمه ولا أن  
نتأخر عنه ، أم هو الرأي والحرب والمكيدة ؟ » فأجاب  
محمد بكل صراحة : « بل هو الرأي والحرب والمكيدة » فقال  
له مخالفه في الرأي : « يا رسول الله : إن هذا ليس بمنزل ،  
تسيره بالناس حتى تأتي أدنى ماء من القوم ، فنزله ، فإني  
عالم بها وبقتلها : بها قلب قد عرفت عنوبة مائه لا ينزع ،  
فتغور ما سواه من القلب ، ثم نبني عليه حوضاً ، ثم نقاتل  
القوم فنشرب ولا يشربون » .  
فقال له النبي : لقد أشرت بالرأي ، .

## الصدق

عندما مات إبراهيم ابن النبي من مارية القبطية ، وهي تبكي  
والناس يحملون جثته ، وحفار يحفر قبراً ، نظر النساء إلى  
السماء صائحات : « انظروا ... انظروا ، انكسفت الشمس »  
وصاح الناس : « إى والله ! لقد انكسفت الشمس لموت  
إبراهيم ، وكانت مناسبة وفرصة لاعتبارها معجزة ، ولكن  
رسول الله نهض وصاح فى الناس : « أيها الناس ... إن  
الشمس والقمر آيتان من آيات الله ، لا ينكسفان  
لموت أحد ولا لحياة أحد ... » وبكى النبي وهو يقول :  
« لو عاش إبراهيم لوضعت الجزية عن كل قبطي » . فقال له أحد  
الحاضرين : يا رسول الله ... تبكى وأنت رسول الله ؟  
فقال رسول الله : « إنما أنا بشر ... تدمع العين ، ويخشع

القلب ، ولا نقول إن شاء الله إلا ما يرضى الرب ، والله لولا  
أنه أجل معدود ، ووعد صادق ، ووقت معلوم ، وأن  
آخرنا لاحق بأولنا ، لجوعنا عليه جزعاً غير هذا ...  
إنا عليك يا إبراهيم لمحزونون ! ..

## موت النبي

عندما مات رسول الله صلوات الله عليه دخل أبو بكر  
مسرعاً واتجه إلى الجثمان ورفع عنه الغطاء وقبله وبكى وقال :  
« يا بني أنت وأمي ... طبتَ حياً وميتاً ... أما الموتة التي كتب  
الله عليك فقد ذقتها ، ثم لن تصيبك بعدها موتة أبداً ، .  
بينما عمر بن الخطاب يصيح من الخارج : « أيها الناس ...  
والله ما مات رسول الله ، إنما عرج بروحه كما عرج بروح  
موسى ... »

وقال العباس عندما لم يصدّق الناس موته : « لقد ذاق  
رسول الله الموت ، وإنه ليأسن كما يأسن البشر ... لأنه ما مات  
حتى ترك السبيل نهجاً واضحاً : أحل الحلال ، وحرّم الحرام ،  
ونكح وطلّق ، وحارب وسالم ، وما كان راعي غنم يتبع  
بها دقوس الجبال بأنصب ولا أداب من رسول الله فيكم ... »

وجعل أبو بكر يصبح في الجموع الهاشجة الحريثة :-  
أيها الناس ادعوا محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل .-  
أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ، ومن ينقلب على عقبيه-  
فإن يضر الله شيئاً ، وسيجزي الله الشاكرين ، (١) أما بعد :-  
فمن كان منكم يعبد دمجداً ، فإن دمجداً ، قد مات ، ومن  
كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت . . .

هذا التفكير في الإسلام هو الذي استلقت نظر أوروبا  
إلى الإسلام ، وسوف يستمر هذا النظر والمعجب باستمرار  
التعمق في التفكير . ولقد صادفت أخيراً كتاباً منشوراً  
عن مخطوط عربي لسكاتب طاش منذ ألف عام يحتوي على  
موضوع يشابه ما جاء في كتاب دالأمير ، لمكيا فيلي من  
الآراء السياسية ، وذكر في مقدمته أن هذا المؤلف العربي  
سبق ميكافيلي بألف عام .

---

(١) سورة آل عمران آية ١٤٤

ولسوف يزداد التقدير للفكر العربي والاسلامي كلما  
:اطلع العالم في الغرب على ما يجهلون من المخطوطات العربية  
والاسلامية ... إلا إذا شاء سوء الطالع، الإسلام في صورته  
العظيمة باليسر والتسامح والرحمة ، أن تظنى صورة أخرى  
منفرة بالعسر والعنف والغلو تذكر بما حدث للسيحية أيام  
حاكم التفتيش التي نقرت الناس من الدين ورجاله ...  
اللهم احفظ الإسلام وشعاره الذي جاء به نبيه :  
« إنما بعثت رحمة للعالمين ، .

## ختم

إن أهمية التعادلية اليوم هي في كونها لازمة أكثر من  
أي زمن مضى ، وخاصة في بلاد الاسلام ، لأن التعادلية  
في جوهرها نابعة من جوهر الاسلام ، والخروج على الاسلام  
في جوهره يتبعه بالضرورة خروج على جوهر التعادلية  
وعناصرها : العدل والتعادل والاعتدال .

والبلاد الاسلامية تستلقت أنظار العالم الآن بالتطرف  
والإقتراف في الخصومات بين المسلمين ، والحروب التي  
تستخدم فيها أعنف أدوات الدمار ، حتى أصبحت كلمة  
المسلم لا توحى بالاحترام . بل إن الاسلام الحقيقي  
ليس معروفاً في بلاده نفسها ، إنما المعروف والمطبق  
طقوس وشعائر . وهذا طبيعي في كل الأديان ، لأن البشر

في كل مكان وزمان ، لا يطيقون الجد طول الوقت ،  
وحتى الجد يحاولون أن يخرجوه من أحشاق الجوهر إلى  
سطح المظاهر .

والإسلام دين التسامح القائل أنه «لا إكراه في الدين» ،  
والمعترف ببشرية الإنسان وما يصادفها من ضعف ، ولكنه  
يدعو دائماً إلى عدم طغيان هذا الضعف .

ومحاربة الطغيان وإقامة الميزان في أحشاق كل إنسان ، هو  
دعوة الإسلام في القرآن الكريم . فقد قال الله تعالى في سورة  
الرحمن : « والسماء دفعها ووضع الميزان ، ألا تطغوا في  
الميزان »<sup>(١)</sup> . للميزان إذن مكان في الإسلام . ولصدق الإسلام  
نجد في المعتقدات الأولى منذ مبدأ التاريخ البشري ذكر الميزان  
الذي يوزن به الخير والشر عند الإنسان . فإله تعالى عندما  
خلق الإنسان خلق معه الخير والشر والميزان الذي توزن به .

---

(١) سورة الرحمن آية ٧ و ٨ .

أعماله . هكذا ظهرت هذه المعتقدات الأولى في مصر القديمة .  
وللبيران مكان عندى ، لأنى ولدت فى برج الميزان . فن  
الطبيعى إذن يوم سئلت عن مذهبي أن يكون هذا المذهب نابعا  
من بذرة نابتة فى أرضى : كالميزان ، وما يتصل به : كالتعادلية .  
ولذلك من رأى أن المذهب أو الفلسفة إنما هى نبت يظهر  
فى أرضه ومناخ بلاده . ولقد سأل السائلون : ولماذا لم تظهر  
عندنا فلسفة ، ؟ وجوابى هو أن الفلسفة موجودة عندنا ،  
مادة تدرّس فى المعاهد والجامعات ، ونحشو بها رؤوسنا ،  
شأن الكثير مما نأتى به من خارج بلادنا وترتيبه مصنوعاً  
كالملابس الجاهزة... والفلسفة التى ترتديها ولدت فى بلادها  
نتيجة وضع حدث فى بطن أمة ، فجعلها تفكر وتبلور  
تفكيرها فى قضية فكرية... فإذا سألنا أنفسنا : أو لم يحدث  
فى بطن أمتنا العربية هزة من الأحداث تجعلنا نفكر وتبلور  
تفكيرنا فى سؤال أو قضية ؟ وعندما نسأل : وكيف نفكر ؟

وَأين أدوات التفكير؟ هنا يأخذنا العجب : فديننا الإسلام  
يزخر بالدعوة دائماً إلى التفكير ؛ فقد قال رسول الله  
صلوات الله عليه « لا عبادة كتفكر » ، كما روى عنه أنه  
قال « تفكر ساعة خير من عبادة سنة » . ولقد أنتج الإسلام  
في عصوره الزاهرة من المفكرين والفلاسفة ما يفخر به  
العقل الإنساني ، فأين ذهبت اليوم أدوات التفكير عندنا ؟ ربما  
كان السبب طول أمد الاحتلال الأوربي لبلادنا الإسلامية ،  
بما حوّل أدوات التفكير عندنا إلى أدوات حفظ وترديد ،  
لا أدوات فكر وتفكير ، حتى لا تحدث اليقظة الفكرية  
التي تزلزل احتلالهم . ولقد شاع الجهل والتجمد ، حتى أصاب  
الدين نفسه ، متمثلاً في رجاله ، فضعف وجبن عن ملاحقة  
التقدم . وبعد أن كان فلاسفة الإسلام مثل : ابن رشد ،  
وابن سينا ، وابن خلدون ، هم الذين ينيرون السبيل لأوروبا  
في الجامعات ، أصبح أهل الإسلام هم الذين يذهبون إلى أوروبا  
لتلقي علومنا بل أيضاً لتقديم رسائلهم في الإسلام إلى الأساتذة

الأوربيين ليتوجوم - وهم من شيوخ الدين الإسلامي -  
بشهاداتهم وألقابهم... وانشغل الناس عن جوهر الدين بالاهتمام  
بمظاهره والحديث السطحي عن الحلال والحرام، كما انشغل  
العوام والمتحذلقون والمغالون من بعض علماء الدين أنفسهم،  
إشارة للعافية أو عجزاً عن قيادة الجماهير الجاهلة أو الغافلة  
إلى فهم نواحي العظمة في الإسلام التي استطاعت أن ترقى  
بأمة قريش المتخلفة إلى «خير أمة أخرجت للناس» .

ولقد كان علماء الإسلام في عهد من العهود الزاهرة  
يدفعون المجتمع إلى التقدم بأرائهم المستنيرة، ولهم في رسول الله  
أسوة حسنة، عندما كان يشجع الناس على حل مشكلاتهم  
الدنيوية بما يرون فيه الخير لهم؛ من ذلك ما نصح به الناس  
بأن يتبعوا رأياً له في تحسين إنتاج النخيل؛ فلما لم ينجح  
الرأي وأخبروه أن الإنتاج قد ضعف، قال لهم صلوات الله  
عليه قولته العظيمة: «أتم أدرى بشئون دنياكم»، وهي قولة  
كان يجب على المسلمين أن يتبعوها في كل ما يفيد مجتمعهم .

ومن اليوم على أبواب سسباق على التقدم والانفع .  
والإسلام هو الداعي إلى التقدم . والنبي العربي ، فيما خرج ،  
عن الوحي ، كان يطلق حرية الرأي الآخر فيما يراه صالحاً  
ونافعاً . وهذا ما حدث أيضاً في غزوة بدر ، عندما طرض  
أحدم رأى النبي برأى آخر كان فيه النفع . وهنا تجلت عظمة  
النبي عليه الصلاة والسلام ...

إلى أن جاءت عهد ظلام ، وظهر من علماء الدين  
بدافع من النفاق من روجوا لنصوص عتيقة تؤدي  
إلى طغيان الظلام ، في حين أشجع بعض آخر قليل حاول  
أن يستمد من جوهر الإسلام الصحيح روح التجديد  
النافع بما يسير بالامة نحو التقدم .

وبذلك انشطر المجتمع : تجمد فيه البعض وتحرك  
البعض ، وحدثت البلبلة ، واهتزت العقيدة ، وساعد على  
اهتزازها غلاة رجال الدين من تناسوا قول الله تعالى « قل يا أهل

«الكتاب لا تغلوا في دينكم غير الحق»،<sup>(١)</sup>...مع أن الإسلام  
في جوهره ضد الغلو والطغيان ، فهو لا يجب الجود ، لأنه  
دين حركة واعتدال وتفكير . ونحن في نعمتنا الحاضر  
في حاجة إلى رجال الدين الذين يبحثون في شجاعة ، وينادون  
بما في الإسلام من دعوة إلى الفسك والاعتدال ، وعدم  
الغلو والطغيان لعنصر من عناصر السكون . وهي إرادة الله  
تعالى ، لأن طغيان النص على الجوهر قد يحول الإسلام  
عند الناس السطحيين إلى مجرد غلو في مظاهر الدين أكثر  
بما هو في جوهره طريق إلى الاعتدال فيما خلقه الله لنفع  
الإنسان . والدين هو النور والمصباح : والنور من عند الله ،  
والمصباح من عند البشر . والمصباح لا يصنع النور ، ولكن  
يحمسه وينشره .. والنور قائم بذاته ، وهو الخالد ، والمصباح  
قائم بمن صنعه وحمله ، ويمكن أن يتغير . والدين يضعف

---

(١) سورة المائدة آية ٧٧

عندما يطنى الاهتمام بالمصباح وتراويقه في زجاج استلقت  
الأنظار ويحول دون وصول النور في صفائه إلى أعماق  
القلب . ولذلك حث الله تعالى على عدم الطغيان والاعتدال  
والعدل وقال « وكذلك جعلناكم أمة وسطا »<sup>(١)</sup> والوسط  
كما جاء في بعض التفسيرات هو : « العدل » .

ولعل أهم ما انفرد به الإسلام هو التركيز على وصف  
رسوله بأنه بشر ... ثم اصطفاه ربه بالوحي الذي هو سبيل  
اتصاله بالله . ولم يجعله في حاجة إلى معجزات ، لأن معجزة  
البشر الحقيقية هي : « العقل » أعجب مخلوقات الله . والبشرية  
معناها : أن الله تعالى لم يشكر الدنيا . ولذلك كان مجال  
التفكير والفلسفة التي للإنسان أن يتبحر فيها هي : الدنيا  
والمجتمع ، وتوجه فكر الناس إلى التفكير في الخلق ، وليس  
الخالق ، لأن عقل الإنسان مهما يعظم لن يقدره حق قدره .

---

(١) سورة البقرة آية ١٤٣

فالمجهود الأكبر لهذا العقل البشرى يجب أن يوجه إلى الإنسان  
ومجتمعه... وهذا مجال الفلسفة والمذاهب الفلسفية .

ولكل أمة فلسفتها وفلاسفتها.. ولهذا سألنا: لماذا ليس لنا  
فلسفة؟ وأهم من هذا السؤال سؤال آخر أجدى بوضعه الآن  
وهو: ماهى القضية أو الموضوع الذى يجب أن تدور حوله هذه  
الفلسفة؟ إن الفلسفة القائمة فى العالم اليوم بمذاهبها المختلفة  
تتفق فى صفة واحدة يطلقون عليها «الفلسفة المادية» . وليس  
معنى ذلك عندى أنها فلسفة خاصة بالمادة وحدها ، ولكن  
معناها أوسع ، ولذلك يمكن أن أسميها «الفلسفة الدنيوية» ،  
لأنها تقوم على الدنيا وحدها . لأن منبعها ليس كتاباً باسماويًا .  
وهو غير ما جاء به الإسلام الذى يذكرنا دائماً أن لنا  
وجودين: وجود الدنيا ووجود الآخرة... أى كلما ذكرت  
الأرض ذكرت معها السماء... وعلى الإنسان أن يعمل  
لدنياه - أى فى أرضه - كأنه يعيش أبداً ، ولآخرفته - أى  
للسماء - كأنه يموت غداً ،... وهكذا إذا كانت لنا فلسفة

فيجب أن تتحرك في عالمين ، وليس في عالم واحد . وهذا ما يجعل المسألة أصعب ؛ لأن على الفيلسوف الإسلامى أن يكون ذاتفكير شامل يتسع للوجودين ، في تعادلية لا تسمع بطغيان تفكير على تفكير فيلغى وجوده . إذ الله الذى أوجد كل موجود لا يريد لوجود أن يلغى وجوداً من مخلوقاته ، لأن كل موجود يجب أن يبقى موجوداً فلا يفتى ولا يطغى ...

والإسلام يعاقب من يلغى وجود غيره كالقاتل ، كما يعاقب من يلغى وجود نفسه كالمتحرر .. لأن الإسلام يتحرك في عالمين .

والصعوبة التى تقف أمام الفلسفة الإسلامية هي هذا التحرك في عالمين : أحدهما لغته المنطق والثانى لغته الإيمان . وهو موقف تفكيرى لم يحدث لفلسفة أوروبا ، لأن تفكيرهم يعيش في عالم واحد ، ولغة واحدة ، هي لغة المنطق العقلى ، وقدواجه الفيلسوف الإسلامى ابن تيمية هذا الموقف

وعرضه في كتابه : « دره تعارض العقل والنقل » . كما أن  
القارىء لابن رشد وابن سينا يشعر بما يبذلانه من جهد  
للعبور بأمان من خلال السور الذى يفصل بين العالمين ...  
وصعوبة أخرى أمام الفيلسوف الإسلامى: هى الحساسية  
الشديدة للمجتمع الإسلامى تجاه كل تفكير جديد أو تفسير  
لم ينشأ عليه ، ومن ذلك فكرة بشرية النبي التى لا يتقبلها بعض  
المسلمين بسهولة ، على الرغم من تكرار هذه البشرية فى القرآن  
كثيراً ، فهم يحيطون النبي وحياته بالتقديس الذى يقربونه من  
الألوهية أكثر مما يقربونه من البشرية . وعندما توفى الرسول  
لم يصدق الناس أنه مات كما يموت البشر ، إلى أن صاح فيهم  
العباس بن عبد المطلب قائلاً : « إنه ما مات حتى ترك  
السبيل نهجاً واضحاً ، أحل الحلال وحرّم الحرام ، ونكح  
وطلق ، وحارب وسالم ، وما كان راعى غم يتبع بها رؤوس  
الجبال بأَنْصَب ولا أداب من رسول الله فيكم » .  
وقد جهد النبي فى إقناع المسلمين أنه بشر كلما حاولوا

أن ينسبوا إليه معجزات ، فرساته ، وهو خاتم الأنبياء أن  
يقنع الناس بالعقل ، وليس بالخروج على العقل . وهو منزل  
في مرحلة أخيرة من مسيرة الإنسان يحترم فيها عقله وبشرته ،  
ويقنع الناس من خلال احترام النظام الكوني وليس  
عن طريق الإخلال بالنظام الكوني ، كما ذكر لبعض الأدیان .  
ولسكن الإسلام أرقى من المسلمين . . وقد سبب ذلك له  
الكثير من المتاعب ، وخاصة عندما يتصرف النبي في بعض  
الظروف والمناسبات تصرفات البشر . . فعلى الرغم من  
صراحته وشجاعته وقوله إنه «حبيب إليہ النساء» ، فإن من علماء  
الدين الإسلامي من نفى عنه هذا الحب البشري ونسب اتصاله  
بالنساء وزواجه منهن إلى أسباب سياسية ، وأن أوامك النساء  
لم يكن صغيرات ولا جميلات ، ظناً من هؤلاء العلماء أن  
تعليمهم هذا هو اللائق بمقام الأنبياء . وانتهج مثل هذا التفكير  
بنية التجريح بعض الأوروبيين ، ولم يفهم الجميع الحكمة  
في أنه بشر .

وهكذا تعثر المسلمون في فهم فلسفة الإسلام . ولم  
يسيروا بها إلى مجالات أرقى وأنفع . بل إنهم جنحوا بسوء  
فهمهم لحكمة الإسلام، وسوء إدراكهم لفلسفة بشرية النبي  
إلى الغلو في صفات تدخل بالإسلام إلى دنيا الخرافة  
والتدجيل — وخاصة عند الشعب البسيط — بإسم التقديس  
والتبجيل ...

كل هذه المعوقات وقفت في طريق التقدم الإنساني ..  
وحالت دون سير الإسلام به في الطريق الصحيح الذي رسمه  
الله ورسوله هداية للبشر إلى نوره الإلهي وإلى العمل الصالح  
لوجوده .. وأخطر ما في هذه المعوقات تجريد الإسلام .  
نتج عن ذلك شل حركة التفكير، واختفاء الفلسفة عندنا  
والاكتفاء بالفلسفة الأوروية المتحركة بكل موجود ،  
العاملة على نمو كل مولود . وقد رسمت عندنا فكرة فهمت  
خطأ فوقفت بنا عن كل حركة تفكير وتعبير، هي القول :  
دين الإسلام صالح لكل زمان ومكان ، وهذا صحيح : فالقرآن

نحن يقرؤه بعناية يجده حقاً معجزاً باحتوائه لكل موجود في الحياة ، وصالح لكل زمان بالتفسير الصالح لهذا الزمان . والفهم الخاطيء للجامدين : أنه صالح بالتفسير القديم في الزمان الجديد...ولسكن الزمان يتغير ، والناس تتغير . والله في كتابه الكريم تحدث عن التغيير والتغير وقال تعالى : « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » (1) ... إذن هي دعوة من الله إلى الناس لتغيير ما بأنفسهم من جهل وتأخر إلى الوداء في الفكر ، ومن قعود عن العمل في زمن متغير بما فيه فائدتهم من علم وتقدم .. فكيف إذن لا يسرى أمره هذا على قرآنه الكريم الذي يوصى بالتغيير النافع والتغيير لن يكون في النص ، فهو من عند الله ، ولكن في التفسير الذي هو من عندنا .

والعجيب ، ونحن في زمن تغير فيه كل شيء ، وأصبح

---

(1) سورة الرعد آية 11 .

الفرد والمجتمع في صورة جديدة، والأفكار الإنسانية اتخذت اتجاهات وأوضاعاً مختلفة، وما يزال القرآن الكريم يعيش بتفسيرات قديمة لشراح ومفسرين من أهل القرون الغابرة، الذين عاشوا زمناً اختلطت فيه المعرفة الصحيحة بالشائعات والخرافات، دون أن نجد من علماء الدين اليوم من ينهض بعلم وشجاعة، فيضع تفسيراً عصرياً يلائم الزمن المعاصر. والقرآن صالح بالفعل لاحتواء هذا العصر وهذا الزمن، ولكن العاجز هو التفسير الملائم للزمن الجديد. ولعل السبب هو الجهل والجهن والخوف. والتخلص العقيم من ذلك كله عندنا هو بالاستناد إلى القديم الغابر، وإبقاء القديم على قدمه. وهذا الاعتقاد الخاطئ. بتفسير القرآن على أنه صالح لكل زمان بمعنى أن كل زمان يجب أن يقف أو يكر راجعاً إلى الزمن السابق القديم للمجتمع المعاصر لنزول القرآن، وهو ما لم يقصده القرآن نفسه، لأن النص على أن تغير ما بأنفسنا معناه أن الزمن يتغير، وأتينا يجب أن نتغير.

التغير الملائم لتغير الزمن نحو الأنفع لأنفسنا .  
ولذلك تركنا الله في وجودنا وعدم تغير أوضاعنا في  
التأخر الفكري والاجتماعي . . لأنه تعالى قد نهانا إلى أنه  
لن يغير ما بنا حتى نغير ما بأنفسنا ...  
ويتجمد عالمنا ، قام لسدّ الفراغ جاهلنا .  
كل ذلك لا يشجع على بناء فلسفة حرة نافعة عندنا ...  
هذا بالإضافة إلى مادتنا في هدم أي فكر أو مشروع  
فلسفة ، بدلا من أن نضيف إلى البناء حجراً ، حتى يصبح  
الحجر فوق الحجر بناء فلسفياً متكاملًا .  
ولما كان تفكيرنا الفلسفي يجب أن يقوم على التفكير  
الإسلامي، فإن علماء الدين ومعاهدهم وجمعياتهم سوف يرون  
هذا الموضوع من اختصاصهم وحدهم، فيواجهون الباحث فيه  
بالإتهام بالخطأ في العقيدة .  
والفلاسفة من المسلمين وغيرهم الذين اتهموا بالزندقة  
معروفون . والناتج عن ذلك إما فكر ديني متمسك بوضع

قديم جامد ، أو فكر إسلامي متحرك بتفسير جديد نافع .  
فإذا تغير الزمن واقتنع المسلمون بضرورة هذه الفلسفة  
الإسلامية ، لأن البديل لن يكون إلا التفكير القائم على  
أسس أخرى للفلسفة ، فإن هذا قد يوقعنا في مشكلة أخرى :  
هي الفصل بين الفكر الديني والفكر الدنيوي المؤسس على  
الفلسفة الإغريقية ، كما حدث في أوروبا . ولكن الفكر  
الإسلامي وهو فكر فلسفي لم يقبل التخلص من الفكر الديني  
ليصبح كما يسميه الأوروبيون باسم « الفكر اللائيك » .  
فاجتهد الفلاسفة العرب في محاولة الانتفاع بالفلسفة الإغريقية  
دون مساس بجوهر الفلسفة الإسلامية ، ولم يعملوا الحياة  
في عالمين .

ولكن الحياة الإنسانية في عالمين تحتاج إلى التعمق  
في فهم خصائص كل حياة ، والحرص على العدل والاعتدال حتى  
لا يطغى عالم على عالم ، فيشل حركته . وقد حدث هذا الطغيان  
عندما اجتاحت جيوش الغزو الحضارة العربية . . ولم يكن

الغزاة على قدر من الثقافة ، وكان سلاح سيطرتهم القوة العسكرية المادية . . فلم يفهموا حقيقة الفكر الإسلامى ، بل استخدموا الكثير من مفكريه فى تدعيم سلطانهم المادى ، وإضعاف قوة النور والتقدم عند المحكومين . فانتشرت الخرافات وشاعت التفسيرات التى تؤدى إلى التجمد . وبذلك وقعت الحضارة الإسلامية ، ووقف الفكر الإسلامى . وأغلق باب الاجتهاد ، واضطهد الحكام المسيطرون الفلاسفة المتحررين ، وأغروا بهم العامة والدعاه وشوّهوا تفكيرهم ... وذهب الطغيان بالعصر الذى كان فيه الإسلام يسبق فيه الأمم الأخرى فى العالمين : فى عالم الآخرة بالفلسفة الدينية التى ترفض المعجزة والخرافة والجود ، وفى عالم الدنيا برفض المادة المسرفة والدعوة إلى الاعتدال : فى الإسلام منهج مرسوم للعدل الاجتماعى كان فى طريقه بالزكاة إلى التنظيم الفعال لو استمرت الحضارة الإسلامية فى مسيرة التقدم ولم تصادف التأخر بسبب الغزو الخارجى وانحراف الدين

الداخلي ، وتشويه كل حركة وعمل فيهما دعوة للتقدم .  
ولقد كان في الإسلام منهج عملي واضح ، فيما نسميه اليوم  
« بناء الإنسان العربي » منه القول : « نحن قوم لا نأكل حتى  
نجوع ، وإذا أكلنا لا نشبع » . وفي الاعتدال والتعاضدية  
علاج اقتصادي وصحي ، أفسدناه للأسف : اقتصادياً بزيادة  
التقنين في رمضان ، وصحياً بالتخمة الإسراف في الطعام  
وأصنافه في شهر الصوم — كذلك القول : « النظافة من  
الإيمان ، وتركنا القذارة في مجتمعنا هي الغالبة ، وبذلك  
عملنا على هدم مجتمعنا .

وإذا كنا لم ننتفع بالإسلام في شئون اقتصادنا وصحتنا ،  
وهو بما تمارسه في حياتنا اليومية ، فكيف نطمح في إنشاء  
فلسفة لنا وهي بما لا يحظر على بال أكثرنا ...

ومع ذلك فقد يأتي زمن يقرأ فيه المسلمون القرآن بفهم ،  
ويدركون ما فيه من آيات تدعو إلى التفكير ... آيات بعيدة  
المعنى والمرمى مثل هذه الآية العجيبة : « وما من دابة

في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم، ما فرطنا  
في الكتاب من شيء، ثم إلى ربهم يحشرون، (١). لا شك  
أن هذه الآية قد تناولتها التفسيرات المختلفة عبر الأجيال.  
وتفسيرها عندي أن الله الواحد قد خلق الدابة التي في الأرض،  
والطائر الذي في السماء، بنفس الوضع عند أمثالكم أيها البشر؛  
يختار من بينها من يتقدمها في صفوف الدواب أو الطيور،  
ويقودها في مسيرتها نحو الأمان، حتى لا تضل وتعرض  
للهلكة. وإذا أردت التشبيه والمقارنة فإن الدابة أو  
الطير الذي يتقدم ويقود فهو نبي دنيام. وأحياناً  
أراقب النمل والنحل في تجمعاتها، وفي نظام العمل عندهما،  
وأسترسل في الملاحظة؛ فأرى أن النحل دولة لها  
ملك تشرف على شغالة تجمع العسل من الزهر فهي  
نظام ملكي. أما النمل فهو نظام اشتراكي يعمل فيه النمل

---

(١) سورة الأنعام آية : ٣٨ .

كله ، لا يعرف ملكة ولا ملكاً في نظامه ، وهو يخزن  
طعامه ليستهلكه في الشتاء ، والله أعلم بحياته التي قد تشبه  
حياتنا في نظامها وعاداتها ، فهي كما قال تعالى - أمم أمثالكم -  
وكان الخالق الأعظم أراد أن يذنبنا من غفلتنا ويقول لنا :  
« أفيتقوا أيها البشر المغرور ، لقد خلقت أمم أمثالكم ،  
فيها الضئيل ، وفيها الضخم ، فيها المرئي لكم ، وفيها المخفي  
عنكم . كما خلقت عوالم لا تعرفون وجودها إلا بأشعة  
تصل إليكم بعد بلايين السنوات الضوئية ... وما أرضتكم  
هذه إلا خرة رمل فوق شاطئ مجهول في محيطات لا طول  
لها ولا عرض ... وما يزال علمكم غير صالح لإدراك  
كنه الله ، : الذي « ليس كمثل شيء » ، و « ما أوتيتم من العلم  
إلا قليلاً » - ومع ذلك أريد لعلمكم هذا أن ينمو ،  
ولعلمكم هذا أن يعمل ، حتى لا يظن الجاهل فلا يبقى  
لوجودكم الأرضي معنى ولا ضرورة ... »  
ولذلك أراد الله للفلسفة أن تكون ، لا لتعلم ما لا يمكن  
أن تعلم ، ولكن لتجعل حياة الإنسان معنى .

## أما بعد ...

فيجب أن نسمى لإيجاد فلسفة عندنا ... وأن تقوم  
هذه الفلسفة على العالمين : عالم الدنيا وعالم الآخرة ...  
— أما الدنيا فأداة الفلسفة فيها : العقل والحواس ...  
وهي ميسورة ، إذا اجتهدنا في الإحاطة بكل ما أنتجه العقل  
الإنساني في كل تاريخه ، وما وعته الحواس بكل مداركها .  
فلا نطغى بمعرفة ونهمل معرفة ...  
— أما الآخرة فأداة الفلسفة فيها : العقيدة والحدس .  
وهي الأصعب ، لأن الحدس لم يستقر بعد الاعتراف به  
بشراً وعلماً كوسيلة للمعرفة ، فلا تقام به إذن عند العلماء  
في الغرب ، وهنا يجب الاعتماد على أنفسنا .  
ولكن ...

العقبة الكبرى عندنا هي وضع الحواجز الحديدية

بالنصوص التفسيرية القديمة في وجه التفكير .. والفلسفة  
تفكير حر ...

كذلك أمامنا عقبة أخرى هي عدم إثارة قضية تحتاج  
إلى بحث ... مثل حكم التصوير ... فقد جاء في البخاري  
ومسلم أن رسول الله ﷺ قال : « أشد الناس عذاباً يوم  
القيامة المصورون » . ثم قوله : « إن أصحاب هذه الصور  
يعذبون يوم القيامة ويقال لهم أحيوا ما خلقتم ... »  
ولقد صار التصوير أحد أعمدة الحضارة في الفن ورق الذوق  
والصناعة والزراعة والتعليم إلخ ... رغم ذلك ما زال بعض  
المتشددين يرون أنه حرام مستشهدين بالحديثين السابقين ،  
دون أن يكلفوا أنفسهم البحث عن جوهر الحديثين  
وعلمتهما وما قد يكون وراهما من ملائسات ! وإذا كان  
اعتقادهم صحيحاً فلماذا يظهر رجال الدين بالتلاوة والخطابة  
في التليفزيون « المرئي » بصورهم المتحركة وأصواتهم للمسموعة ؟  
فإذا قيل لنشر الدين ؛ عندئذ تنشأ قضية : هل الغاية تبرر

الوسيلة في الدين ؟ بمعنى أن الإسلام يقبل استخدام وسيلة  
مكروهة في سبيل نشره ؟ تساؤلات لا تطرح على الإسلام  
دين الروح والعقل لولا جهود الجامدين وتشدد المتشددين  
وعلى كل حال فإن مثل هذه الأسئلة والقضايا التي قد  
يطرحها بعض الناس ليس فيها من حرج ، فالتفكير  
البشرى خلق لكي يتحرك ...

ولكن المطلوب هو أن يتحرك كل ذلك لا في إطار  
التجمد والتشدد والعنف بل في إطار الاعتدال والعدل  
والرحمة التي هي من صفات الله المتجلية في خلقه لتكون  
وفي ربي الإنسان وفيما شئته هذه الفلسفة التعادلية من  
وجود الخليفة التي أوجدها الله تعالى : حيث لا يظن  
وجود على وجود ...

والله هو الرحمن الرحيم وهو الهادي بنوده إلى  
سواء السبيل .

## فهرسة التعادلية الاسلامية

١ - تعادلية الكون - للحفاظة على كل ما أوجده الخالق .. فلا طغيان لموجود على موجود .. أوصى الله في قرآنه بعدم الغلو والإسراف ، وبالعدل ، لعدم الإخلال بالتعادل الضرورى لتوازن عناصر البقاء : من أضخم الكواكب إلى أصغر الخلايا .

٢ - الله لا يلقى وجود ما أوجده ، ولكن يغير صفة الوجود ، وما نسميه الموت ليس إلغاء لوجود ، بل تغيير صفته ، ونقله من وجود دنيوى إلى وجود أخروى .. وما سمى الناسخ والمنسوخ فى القرآن ليس الإلغاء ، ولكن وقف التنفيذ ، لحكمة وظروف ... لأن من غير المعقول واللائق الزعم بأن الله يغير إرادته كما يفعل البشر العاجز .

٣ - الإسلام صالح لكل زمان ومكان : والمقصود  
أن تفسير القرآن ليس واحداً ، بل إنه متعدد بتعدد الزمان  
والمكان : فالنصن واحد والتفسير متعدد . ولكل زمان دولة  
ورجال وتفسير . والسكون متحرك في الزمان والمكان ،  
وكذلك الإسلام . . . والإنسان متحرك في مراحل العمر ،  
لا جهود أو وقوف في زمن واحد أو وضع ثابت .

الله وحده الثابت . . . وفي الإنسان شيء ثابت وهو المتصل  
بالله . . . أما المتصل بالدنيا فهو القابل للتغيير مثلها .

٤ - بشرية الإسلام - أكد القرآن على أن نبي  
الإسلام بشر يوحى إليه . فهو إذن محكوم ببشريته ،  
إلا فيما نزل به وحى ، فهو محكوم بالوهية التنزيل . ولأن النبي  
بشر ، وقد أراد الله أن يكون كذلك حتى يخاطب البشر في  
مجتمعهم ويعرضوا عليه مشكلاتهم وقضايا مجتمعاتهم ، ويشير  
عليهم بالحلول التي يراها ويتلقى فيها التأييد أو التعديل من

الله .. حتى جاء جانب كبير من القرآن ، متصلاً بحياة الإنسان  
ومجتمعه ، وخاصة المجتمع في زمانه . ولم يصدق كثير من  
الناس أن النبي بشر مثلهم يمكن أن يموت ، إلى أن صاح فيهم  
العباس قائلاً : « إنه ما مات حتى ترك السبيل نهجاً واضحاً :  
أحل الحلال وحرّم الحرام ، ونكح وطلق ، وحارب وسالم ،  
وما كان راعي غنم يتبع بها رؤوس الجبال بأنصب ولا أداب  
من رسول الله فيكم ، » .

٥ - حرية البشر : ترك الإسلام الإنسان حرية  
الرأى والتصرف فيما يراه نافعاً له وللمجتمع ، وتبعاً لحسن  
استخدام عقله الذى خلقه الله له ، وحثه على استعماله ليدرك به  
عظمة الخالق فى خلقه ، ويتابع به حركة الحياة فى الدنيا  
ويبعد عنه الجمود الذى يؤدى إلى ضعف نشاطه الفكرى ،  
فلا يقوى على تغيير ما بنفسه حتى يساعده الله على ما فيه  
خير ، مصداقاً لما قاله تعالى فى قرآنه الكريم :  
« إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، » .

إذن تغير المجتمع والإنسان ، وبناء الأمة في وجودها  
على الأرض ووجودها في السماء ، ودسم الطريق إلى  
الوجودين هو واجب الفلسفة الإسلامية ؟

القاهرة ١٤٠٣ هـ ت . ١

## دَعَاءُ النُّعَادِيَّةِ

يَا مَنْ بِيَدِهِ نَفْسِي .....  
اللَّهُمَّ اجْعَلْ عَقْلِي يَفْهَمُ حِكْمَتَكَ  
وَاجْعَلْ قَلْبِي يَهْتَدِي إِلَى فُورِكَ

تَرْفِيقُ الْخَلِيقِ

١٤٠٣ هـ

**EQUILIBRIUMISM**  
**PRAYER**

Almighty, He who possesseth myself  
Make my mind understandth your wisdom,  
And my heart reachth your light.

1403 h 1983

Tawfik Alhakim

sciences have led them to conceive greatness of God  
as «Albert Einstein» and «Alfred Kastler» .

\* \* \*

The change then of society and man, the building of a nation in its existence on earth and in heaven, and designing the path to both existences are the functions of Islamic Philosophy.

**T. A.**

divorced, fought and made peace . . . No shepherd reaching with his sheep the summit of hills had ever suffered or was more decent among you than the prophet of God.»

#### 5 — Freedom of the People :

Islam asserted for man freedom of opinion and behaviour within what he believes to be useful for man and his society and in accordance with making better use of his mind created for him by God the Almighty. Islam urged man to use his mind in order to be able to conceive the greatness of God in his creation the movement of life on earth, to take him away from freezing which leads to weakness of mental activity thus he would be unable to change himself, till he receives from God what helps him to attain what is good for him. This is attested by Almighty verses in the Kuraan where God says:

«God shall not change a people state till such people shall change such a state».

Almighty God said : « Among my Prayers who know and venerate me more are the scientists » .

God means savants whose learnings in various

accordingly the prophet is governed by his own humanity except for what is divinely inspired to him, such inspiration is governed by the Almighty conveyance to his prophet. Since the prophet is human, God willed him to be so in order to mix with people in their community, to be presented with problems and difficulties of their community and then the prophet will indicate the solutions he deems proper and receives support or amendment from Almighty God. This pattern explains why the greater part of the Kuraàn is connected with and bearing on the life and society of man, his community in his own age in particular.

Many people did not believe that the prophet was a human being like them, and in particular he was not liable to pass away till « Al Abbas » the prophet's uncle shouted at them saying The prophet had not passed away before he made the right path a clear programme : detailing allowables and forbidding non-allowables, he got married and

to fancy that God changes his will as is the case with failing human beings.

**3 — Islam is suitable for every age and place :**

This means that interpretation of the Kuraàn shall not be the same either. Interpretations are as various as are the ages and places. Thus the verse stipulation is unchangeable but the interpretation is varied. For every age there are its own state, men and interpretation . . . universe is of movement in the age and place and so is Islam. Man is of movement at various stages of age, no freezing nor suspension either in the same age or the same stable state.

Only God is stable . . . and in a human being there is a stable part i.e. that part connected with the Great Creator . . . the other part connected with this life on earth is as changeable as is the world.

**4 — Islam Humanity :**

The sacred Kuraàn commended the Islam prophet to be a human being inspired by the Almighty,

## **Islamic Equilibriumism**

### **In Brief**

#### **1 — Universe equilibriumism :**

In order to preserve beings by the Great Creator : No being shall oppress another . In His «Kuraan» Almighty God forbids extravagance and exaggeration and commended justice in order not to infringe the necessary equilibria required for the survival of the elements balance starting from the tremendous planets down to the smallest cells.

#### **2 — Almighty God does not annul what He creates**

**but He only changes the manner of existence :**

What we call death does not cancel existence, but only changes the being manner and moves it from this world existence to an eternal one, what is called superseded and superseding in the holy Book — The Kuraan shall not be conceived as annulment but may be a Kind of «execution suspension» because of certain prudence and circumstances . . . it is neither reasonable nor appropriate

with yourself and have it searched all over. Then you will come across a hidden power of equation and an inherent corresponding excess.

You have to equate your existence in the same way your planet did against the sun. Put yourself in balance against the facing powers! Otherwise these will swallow you up. You will be their fuel and food. You will become nil !

This is what equilibriumism doth say.

A power that swells requires to swallow the others. In the political and social domain for instance, capitalism wanted to swallow labour .. Colonialism wants to swallow peoples .. The powerful class wants to swallow the whole nation .. The west wants to swallow the east .., etc.

Equilibriumism is then the philosophy of the alternate power and a movement resisting swallowing.

tituent, the figure Two shall return back to the image of the whole figure One i.e. to passive existence.

Hence equilibriumism interprets the positive life to be the necessity for a group of powers to exist, to correspond, to be balanced resisting each other in the society and the universe.

A nil state commences with swallowing all powers into the integral figure One. Integral figure «one» is a state of stagnancy while various alternate figures represent the equating and resisting movement .. it is life .. this is equilibriumism.

It is the philosophy of the equatingly corresponding movement.

Keep your own power independent and free to equate and be able to meet other powers waiting to swallow you. In this way you resist, move and live.

Equilibriumism is : resisting to be swallowed.

If you suffer a shortage or weakness begin

resist and to survive ... Thus the universe positive movement started.

The absolute power of a sultan is also a passive movement .. The existence of an alternate and equivalent power is imperative for the society, i.e. the power of the ruled so that the society may commence a positive life.

And so on .. and so on ..

Such is equilibriumism in its essence that : whole figure one is of passive existence; It is a step after nil. It is a zero as regards the positive movement, since it does not resist anything else and does not find another thing to resist it. (When resistance is nil movement shall stop.

Accordingly real life does not begin but with the figure « two » .

In order to be permanently existing «figure Two» each one in it shall preserve its own power. .If one constituent figure becomes swollen at the expense of its twin constituent or if one power in other words manages to swallow the power of the cons-

## **1 = ZERO**

According to this concept : positive life commences with figure «two». Two things create relationship between them : i.e. life and movement.

Any movement shall have an opposite one to balance and resist it.

Almighty God alone shall be the only One, the Integrated One. However through His Almighty Will He created a corresponding will i.e. the power of the devil in order to make human life capable of getting coloured and to move . . . .

God created Adam a one complete whole, but his same existence was passive ..

So, He created two of him : Adam and Eve. Then and only then did existence adopt its positive movement.

The sun by itself is a passive power, but other planets started to drop out to create equilibria and to strike a balance against the mother «sun» to

## **EQUILIBRIUMISM ESSENCE**

The word equilibriumism should not in this book be taken to mean equality , as Arabic language indicates, Neither should it mean moderation or a compromise among things.

The true meaning for the purpose of equilibriumism here shall mean the corresponding strength while the equilibriumism force shall also mean the corresponding or resisting force.

Unless the sense of the word shall be taken to mean the above, equilibriumism shall lose its real meaning and aim .

Accordingly equilibriumism in this book shall always be understood to mean a corresponding and resisting movement against another one.

---

Translated from the true text of Tawfik Al Hakim « Equilibrium & Islam » by Mohammed Ibrahim Abdul Aziz (University of Riyad formerly and actual the Middle East Observer Counsellor )

رقم الإيداع بدار الكتب ١٩٨٢/١٧١٩  
الترقيم الدولي ٨ - ٤٧٧ - ٩٧٧ ISBN

**TAWFIK ALHAKIM**

---

**E QUILIBRIUM  
&  
I S L A M**

**AL ADAB PRESS**  
**42 OPera square Cairo**  
**Tel: 920868 919377**



**TAWFIK ALHAKIM**

---

**E**QUILIBRIUM  
&  
**I**SLAM

**AL-ADAB PRESS**

**42 Opera square Cairo**

**Tel: 920868 919377**

To: [www.al-mostafa.com](http://www.al-mostafa.com)